مصطلح "التفكر" كما جاء في القرآن الكريم

(دراسة موضوعية)

إعداد

د. محمد خازر المجالي

أستاذ مشارك، قسم أصول الدين/كلية الشريعة

الجامعة الأردنية

* تم إعداد هذا البحث خلال إجازة التفرغ العلمي الممنوحة لي من قبل الجامعة الأردنية– عمّان – الأردن

مُلَخَّصٌ

يدرس هذا البحث مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم، وقد ورد هذا المصطلح ثماني عشرة مرة، في سور متعددة، وسياقات مختلفة، وموضوعات فرعية متنوعة، يجمعها في العموم الحاجة إلى عمق التفكير الموصل إلى الأمر الذي يريده الله تعالى، لا مجرد الوقوف عند الحواس، كالسمع والبصر والعقل، أو مجرد التذكر.

ومن هنا فقد عرض البحث الفرق بين التفكر وغيره من المصطلحات التي يُظن ترادفها مع التفكر، فالتفكر مقصود منه إعمال العقل أكثر، وذلك لأن الأمر المقرون به هو أمر عظيم ودقيق لا يُدرَك إلا بالتفكر، وليس أي تفكر، بل التفكر المبني على النظر الصحيح، وعلى الحرية وحسن التدبير.

وموضوعات التفكر تراوحت ما بين تعظيم الخالق سبحانه من خلال التفكر في آياته العظيمة، ما بين الكون الشاسع والنفس التي بين جنبي الإنسان، والتفكر في حقيقة أمر الرسول ﷺ وما جاء به عن ربه سبحانه من الوحي، والتفكر في حقيقة الدنيا وسرعة زوالها والموت وحقيقة وقوعه، والتفكر في حِكَمِ بعض التشريعات خاصة المتعلق منها بالنفقة، والتفكر في عاقبة من لم ينفعه علمه، ونكص على عقبيه بعد إذ هداه الله تعالى، والتفكر في عظم القرآن وعظم آثاره.

وقد بينت الدراسة أهمية السياق في طلب التفكر أو أي نوع آخر من وسائل الإدراك، فالآيات متسقة في الحديث عن التفكر، للغرض الذي بيّنا، و لم تتخلف آية واحدة عن هذا الاتساق العجيب في كتاب الله تعالى.

والقرآن بهذا الشيء قد لفت الأنظار إلى أهمية التفكر، وأهمية تناول الأشياء تناولاً علمياً صحيحاً، وبينت آياته بعض آداب التفكر، خاصة البعد عن التقليد، وعدم اعتياد عادة ما في التفكير، وضرورة حرية التفكير، والبعد عن الغوغائية والتأثيرات الجانبية التي قد تحول بين الإنسان والتفكير السليم.

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن مما يتناسب ومرتبة القرآن العظيم، من حيث الأسلوب وقوة الحجة وبلاغة الكلام، أنه اعتنى اعتناء كبيراً بالعلم وما يوصل إليه من العقل والحواس، فأراد الله منا أن نُعملها كي نصل إلى مرتبة من الإيمان عالية، ودرجة من اليقين راسخة، وقوة في الحق غالبة، فلفت سبحانه في كتابه العظيم الأنظار، ووجه الأسماع والأبصار، ودعا إلى التفكر والاعتبار. وبهذا غلبت حجة القرآن، وخضعت لها الأذهان، إلا عند قوم أبوا إلا الجحود والإنكار، مع أن أنفسهم استيقنت منها وتمكنت، ولكنه الظلم والعلو والاستكبار.

وفي هذا البحث ندرس مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم، لنقف على روعة القرآن في استخدام الألفاظ واختيارها دون غيرها، ولنعلم مدى اهتمام القرآن بهذه المصطلحات التي رفعت البشرية إلى مستوى العلم والنظر والتفكر والتدبر، ليخرج الله بهذا القرآن أقواماً من الجهل إلى العلم، ومن التقليد إلى الاجتهاد، ومن الظلمة إلى النور، وهذه من مظاهر تكريم الله للإنسان، فالإسلام

سبق إلى هذا كله، وكتابه القرآن قد انفرد دون غيره بهذه المجموعة المتكاملة من أنواع الهداية: الإيمانية والتشريعية والعلمية والتاريخية.

ولعل لمصطلح التفكر دلالات تختلف عن غيره من المصطلحات القريبة، ومن هنا كانت له استخداماته المحددة، فليس الأمر عفوياً أن يَرِد ذكرُ العقل هنا، والتذكر هناك، ثم التفكر أو الاستماع والنظر، وهكذا، فلكل مجاله واستخدامه.

والتفكر من الأمور التي حث عليها القرآن كما يدل ظاهر الآيات المنتهية بالفاصلة (لعلكم تتفكرون) وما والاها، وكونه مرتبطاً بالعقل فهو من أهم الوسائل التي تقود إلى الهداية، بعيداً عن الإكراه، وهو أيضاً دعوة قرآنية إلى التأني والمقارنة والبحث، فلا بد أن يكون الإيمان عن قناعة راسخة، وإلا تعرض لمختلف عوامل النقص والتراجع، وهكذا يريدنا ربُّنا سبحانه أصحابَ عقول نيِّرة، وحجة دامغة، وفهم ثاقب، وسمع وبصر مسخرين للهداية.

منهج الدراسة:

وبناء على هذا نريد أن نركز في بحثنا على مصطلح التفكر: أن نعرف معناه، ونقارن بينه وبين غيره من المصطلحات القريبة، وهذا يدعونا إلى جمع الآيات التي ورد فيها هذا المصطلح، ثم ندرسها دراسة موضوعية، ونبين منهج القرآن في عرض موضوع التفكر، ثم ندرس الموضوعات الفرعية المنبثقة عن الآيات التي تعرضت للتفكر، وبناء عليه سنقسم البحث إلى فصلين وخاتمة، كما يلي:

التمهيد: وفيه حديث عن عناية القرآن بالعلم والفكر، وأهمية الفكر.

الفصل الأول: معنى التفكر ومنهج القرآن في عرضه، ويقسم إلى مبحثين:

المبحث الأول: معنى التفكر، ومقارنة بينه وبين المصطلحات القريبة.

المبحث الثاني: منهج القرآن في عرض مصطلح التفكر.

الفصل الثاني: دلالات التفكر كما بينها القرآن وعلاقتها بالسياق، ويقسم إلى مباحث ستة هي:

التفكر في تعظيم الخالق سبحانه

التفكر في بيان حقيقة النبوة

التفكر في تعظيم القرآن وأهمية تدبره

التفكر في عاقبة عدم الانتفاع بالآيات

التفكر في بيان الحكمة من تشريع بعض الأحكام

التفكر في بيان حقيقة الحياة الدنيا وحتمية الموت

الخاتمة والنتائج.

التمهيد: عناية القرآن بالعقل والعلم والفكر وأهمية التفكر:

لعل طبيعة القرآن الكريم من كونه معجزة الرسول ﷺ، وأنه آخر كتاب من عند الله تعالى، وأنه للناس كافة، تتطلب هذه كلها أن يكون هكذا كتاب علم وعقل وتفكر وتدبر.

فمعجزة كل نبي كانت حسية يراها الناس ويتأثرون بها، ولم يكن أي من الكتب السماوية الأخرى معجزاً، فكان لا بد من أن تعتمد هذه المعجزة على ما

يثير الفكر والعقل والفهم. قَالَ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا مِنَ الأَنْبيَاءِ نَبيٌّ إلا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(١).

ولكون القرآن آخر كتاب أنزل على آخر رسول، فلا بد كذلك من أن يلائم كل مرحلة من مراحل البشرية بعد النبي محمد ﷺ، يقيم عليها الحجة الدامغة، فاحتوى على مظاهر كثيرة مما يمكن للناس أن يُعملوا فيها عقولهم وفكرهم، وتقودهم إلى الهداية.

ولأن القرآن للناس كافة، فوسائل إقناعه كثيرة، لا تعتمد على اللغة فقط، هناك مظاهر الإعجاز الأخرى، وهناك ما يمكن أن نقيم به الحجة على العالمين، فتطلب الأمر أن يكون القرآن كتاب هداية وعقل وفكر وعلم.

ولا غرابة أن نجد القرآن بقسميه: المكي حيث الدعوة إلى التوحيد والدلالة على الخالق، والمدني: حيث التشريع والوصول بالإنسان إلى الاستقرار، قد دعا إلى مسألة التفكر واستخدام العقل.

ولا أدل على اهتمام القرآن الكريم بالعقل من أنه ذكره (٤٩) مرة، والفكر (١٨)مرة، والتذكر بمشتقاته الكثيرة أكثر من (٢٠٠) مرة عدا كلمة (الذكْر) التي تدل على القرآن أو ذكر الله، والتدبر (٤) مرات، والنظر (٣٦) مرة، والفقه (٢٠) مرة، وذكرت حاسة السمع (١٠٢) مرة بعضها ليست ذات دلالة مباشرة على

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: ٤٥٩٨، ورقم: ٦٧٣٢، ورواه مسلم في صحيحه برقم: ٢١٧.

طلب السمع، والبصر (٥٢) مرة، وأولو الألباب (١٦) مرة، وأولو النهى مـــرتين، وهكذا. أما كلمة العلم ومشتقاهما فقد وردت (٥٨٢) مرة.

ولا ننسى كذلك أن أوّل آيات أنزلت على النبي ﷺ قد ذكرت أساليب تلقي العلم، حيث القراءة والعلم والقلم: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"، (العلق/١-٥). ولا يمكن أن تكون هذه الآيات الأولى بلا دلالات، بـــل إن الله تعـــالى مـــن اللحظة الأولى يعلن لنبيه الذي تلقى الرسالة لتوه، أن هذا الدين مبني على العلـــم والتدبر والتفكر، وأن الإنسان لو أحسن استخدام حواسه لقاده ذلك إلى الإيمـــان اليقيني، وهكذا طبيعة القرآن، إنه يبين حقائق الوجود، وحقائق النفس والكـــون، والمطلوب النظر والتفكر، الأمر الذي يقود إلى الحقيقة والإيمان، أن هنـــاك خالقـــاً واحداً مستحقاً للعبادة، وهكذا ينقاد الإنسان إلى العبودية الحقيقية لمن يستحقها.

إن هذا الدين تميز بقدرته الكبيرة على استقطاب العقول ومن ثم دخول العدد الكبير من الناس فيه، وما ذاك إلا لأنه يخاطب العقل والفطرة السليمة، ويحـــارب التقليد والجهل، وبهذا ينهض الإسلام بالإنسان ليرتقي إلى مستوى التكريم الـــذي أراده الله له، لا بأن يعيش حبيس عبودية لمن لا يـــستحقها، مـــن آلهـــة مـــدعاة، وشهوات غالبة، وجهالة مظلمة، وتقليد أعمى.

يقول الشيخ الغزالي: "وظيفة العقل أن يفكر كما أن وظيفة العين أن تبصر... الإنسان الذي يعيش بعقل معطل التفكير كإنسان يعيش بعين منغمضة، ويد مشلولة وقدم مقيدة، وذلك رد للأشياء عن مجراها الطبيعي"[٢]. ويقول: "الإسلام لا يلوم

(٢) محمد الغزالي، حقوق الإنسان، ص/٥٣.

على حرية الفكر، بل يلوم على الغفلة والذهول"، ويقول: "المصابون بكسل التفكير واسترخاء العقل عصاة في نظر الإسلام"، ويقول: "تبدأ حرية التفكير من علاقة المسلم بدينه نفسه، فإن قوام الإسلام ولب رسالته كتاب مفتوح ميسر للذكر، مطلوب من الأمة أن تتدبره وأن تستفيد منه شرائعها جميعاً" (٣).

إن القرآن بهذا الكم من الآيات المتحدثة عن وسائل الإدراك، وبحديثه عن مسائل كثيرة مما يندرج تحت المظاهر العلمية، سواء في الكون أو النفس، إذ يبلغ عددها حوالي (٧٥٠) آية (٤)، ليدل دلالةً واضحةً على أنه كتاب مفتوح للناس كافة لينهلوا منه ويتعلموا منه، وهو بهذا كتاب تحدّ يبين لكل ذي بصيرة أنه ليس من عند أحد من البشر. وبهذا يجمع القرآن في آن واحد بين الهداية بميادينها المختلفة وبين الإعجاز.

ومن خلال هذا الكم من الآيات المتحدثة عن الظواهر العلمية نوقن بأن الله تعالى يوجه عباده إلى التفكر في آيات خلقه وبديع صنعه، وفي هذا صرف لهم من أن يتفكروا في ذات الله تعالى، ففي البخاري ومسلم وغيرهما: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَنْ يَبْرَحَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا هَذَا اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ" (٥).

---

(٣) المرجع السابق، ص/٥٤.

(٤) انظر عبد الله شحاته، تفسير الآيات الكونية، ص/١٦-٣١، حيث بين أن هناك (٧٥٠) آية تتحدث عن ظواهر علمية، منها (٢٧٧) آية تتحدث عن الآيات الكونية، وجاءت في (٥٥) نصاً من القرآن.

(٥) البخاري برقم: ٦٧٥٢، ومسلم برقم: ١٩٠، وفي مواضع أخرى، ولفظه يختلف عن البخاري قليلاً. وثمة نص كثر ذكره عند العلماء وهو عن ابن عباس رضي الله عنهما: "إن قوماً تفكروا في الله ﷻ، فقال النبي ﷺ: تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله"، وقد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وروي = =موقوفاً على عمر ﷺوغيره من الصحابة، انظر كتاب العظمة لأبي الشيخ الأصفهاني، ٤/١، ٢١٥/١، ١٤٤٢/٤؛ كتاب أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي، ٥٢٤/٣، وانظر أحمد محمد عساف، بغية الطالبين من إحياء علوم الدين، ص/٤١٠. وقد ضعفه السيوطي في

من أقوال العلماء في أهمية التفكر:

إن التفكر يجعل من العادة عبادة، حين يسخر الإنسان فكره في حقائق الأشياء لا مجرد مظاهرها، يقول ابن الجوزي: "تأملت على أكثر الناس عباداتهم، فإذا هي عادات، فأما أرباب اليقظة فعاداتهم عبادة حقيقية...فإن الغافل يقول سبحان الله عادة، والمتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذلك فيقول: سبحان الله ... ولو أن إنساناً تفكر في رمانة فنظر في تصفيف حبها وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل، ... أزعجه هذا الفكر إلى تعظيم الخالق فقال: سبحان الله، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر، فهذا تسبيح المتيقظين ... وما تزال أفكارهم تجول فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة، وكذلك يتفكرون في قبائح ذنوب قد تقدمت فيوجب ذلك الفكر وقلق القلب وندم النفس، فيثمر ذلك أن يقول قائلهم: أستغفر الله ... فهذا هو التسبيح والاستغفار، فأما الغافلون فيقولون ذلك عادة، وشتان ما بين الفريقين"[٦].

ومما قاله في أهمية الفكر وخطر الشهوة في مقابل الفكر: "الشهوة تغطي عين الفكر"[٧]. وقال حاتم:"من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف". وقال الشافعي: "استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر"[٨].

الجامع الصغير، ١٣٢/١، ومحقق كتاب العظمة (رضاء الله المباركفوري)، ومحقق كتاب أصول اعتقاد أهل السنة (أحمد سعد حمدان)، ولكن في المقابل فقد قواه السخاوي في المقاصد الحسنة، ص/١٥٩، حديث رقم: ٣٤٢، وذلك باجتماع طرقه، كما جوده الحافظ ابن حجر كما في الفتح: ٣٨٣/١٣، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٧٨٨.

(٦) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، صيد الخاطر، ص/٣٥٢.

(٧) صيد الخاطر، ص/٣٧٧.

(٨) انظر بغية الطالبين، ص/٤١٠.

ويقول الغزالي في الإحياء: "إن ثمرة الفكر هي العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة، وإذا حصل العلم في القلب تغير القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، لأنه الذي ينقل من المكاره إلى المحابّ، ويهدي إلى استثمار العلوم ونتائج المعارف والفوائد"(٩).

ويقول ابن القيم: "أصل الخير والشر من قبل التفكر، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض. وأنفع الفكر: الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها. فهذه أربعة أفكار هي أجلّ الأفكار، ويليها أربعة: فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء. ورأس القسم الأول: الفكر في آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه، وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة، فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخستها وفنائها، أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد، وبذل الوسع في اغتنام الوقت، وهذه الأفكار تعلي همته وتحييها بعد موتها وسفولها، وتجعله في واد والناس في واد...."(١٠).

ويقول ابن القيم في مدارج السالكين: "أول منازل العبودية (اليقظة)، وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين....فإذا استيقظ أوجبت له اليقظة (الفكرة)، وهي: تحديق القلب نحو المطلوب الذي قد استعد له مجملاً، ولما يهتد إلى

(٩) بغية الطالبين، ص/٤١٠.
(١٠) ابن القيم، الفوائد، ص/٢٤١-٢٤٢.

تفصيله وطريق الوصول إليه.. فإذا صحت فكرته أوجبت له (البصيرة)، فهي نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد، والجنة والنار، وما أعد الله في هذه لأوليائـــه، وفي هذه لأعدائه[١١].

ويقول ابن القيم إن الهروي -صاحب منازل السائرين- قد جعـــل للفكـــرة ثلاثة أنواع هي: فكرة في عين التوحيد، وفكرة في لطائف الصنعة، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال. ثم يعقب: قلت: "الفكرة فكرتان: فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة.فالتي تتعلق بالعلم والمعرفة: فكرة التمييز بين الحـــق والباطل والثابت والمنفي. والتي تتعلق بالطلب والإرادة هي الفكرة التي تميـــز بـــين النافع والضار. ثم يترتب عليها فكرة أخرى في الطريـــق إلى حـــصول مـــا ينفـــع فيسلكها، والطريق إلى ما يضر فيتركها. فهذه ستة أقسام، لا سابع لها، هي مجـــال أفكار العقلاء"[١٢].

وقال الحسن: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة"، وقال الفضيل: "التفكر مـــرآة تريك حسناتك وسيئاتك"، وكان سفيان بن عيينة يتمثل:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة[١٣]

وما أردت نقل هذه الأقوال إلا لأهميتها وجميل تعبيرها عن أهمية الفكر، وهي غيض من فيض مما قيل في هذا المجال، وإذا أضفناها إلى الحقائق التي بيناها عن رعاية القرآن للفكر تبين لنا عظم شأن الفكر وضرورته.

---

(١١) مدارج السالكين، ١/٢٤٢-٢٤٣.
(١٢) المرجع السابق، ١/٢٨١.
(١٣) ذكر هذه الأقوال د. يوسف القرضاوي في كتابه (العقل والعلم في القرآن الكريم)، ص/٤٥، نقلاً عن الغزالي في الإحياء.

الفصل الأول
معنى التفكر ومنهج القرآن في عرضه

المبحث الأول
معنى التفكر، ومقارنة بينه وبين المصطلحات القريبة

هناك بعض المصطلحات التي يشير ظاهرها إلى تقارب في المعنى فيما يتعلق بالفكر والتفكر، فأحياناً يرد التعقل والتذكر والتفقه والسمع والبصر والتعلم، وهي أمور مرتبطة فيما بينها بطريقة أو بأخرى، ويعنينا في المقام الأول هنا أن نركز على التفكر، ثم نتطرق إلى غيره من المصطلحات القريبة.

يقول الراغب الأصفهاني: "الفكرة قوة مُطرِقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا رُوي: (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله، إذ كان الله منزَّهاً أن يوصَف بصورة)"[١٤]، فنلحظ أنه يفرق بين الفكر والتفكر، فالأول للقوة التي يكون بها التفكير، والثاني لحركة تلك القوة بحسب نظر العقل، فكأن الفكر عنده غير العقل[١٥].

ويقول ابن منظور: "الفكر إعمال الخاطر في الشيء... والفكرة كالفكر، وقد فكر في الشيء وأفكر فيه وتفكر بمعنى، ورجل (فكير) مثال فسيق و (فيكر) كثير الفكر... والتفكر اسم التفكير... وقال الجوهري: (التفكر التأمل، والاسم الفكر

(١٤) المفردات، ص/٣٨٤.
(١٥) انظر أحمد حسن فرحات، الفكر الإسلامي: مفهومه ومعالمه، ص/٨.

والفكرة، والمصدر الفَكر بالفتح)، قال يعقوب: يُقال ليس لي في هذا الأمر فكر أي ليس لي فيه حاجة، قال: والفتح فيه أفصح من الكسر"[16]، أما ابن فارس فذهب إلى أن مادة فكر تفيد تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبراً....[17].

فالتفكر هو تفاعل مستمر في العقل الإنساني، يصور رؤى ومشاهد وحواراً لا صوت له إلا في الوجود الداخلي للفرد، ومرجع التفكير الرئيس هو العقل الذي وهبه الله للإنسان تتوقد ملكة التفكير لديه دون انقطاع لحظة واحدة، منذ الحياة وحتى الموت[18].

وقد يشترك القلب مع العقل في التفكير[19]، بل ربما تشترك الحواس الأخرى في صفاء التفكير، حين يسخَّر السمع والبصر والتحسس خدمة له.

وينقل البقاعي عن الحرالي عند حديثه عن الآية (٢١٩ من سورة البقرة): "لعلكم تتفكرون: أي لتكونوا على حالة يرجى لكم معها التفكر، وهو طلب الفكر، وهو يد النفس التي تنال بها المعلومات كما تنال بيد الجسم المحسوسات"[20].

ويقول ابن عاشور: "التفكر جولان العقل في طريق استفادة علم صحيح"[21].

---

(١٦) لسان العرب لابن منظور، مادة (فكر)، ٤٢/٥. وانظر مختار الصحاح للرازي، مادة فكر، ص/٢١٧.
(١٧) معجم مقاييس اللغة، ٤٤٦/٤.
(١٨) انظر الرأي والعقيدة في الإسلام، ص/١٨.
(١٩) النهج الإيماني للتفكير، عدنان النحوي، ص/١٩.
(٢٠) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٦٣/٣.
(٢١) التحرير والتنوير، ٢٤٤/٧.

ومن العلماء المعاصرين من تحدث عن طبيعة التفكير ومستوياته وخصائصه كما بينتها الدراسات الحديثة، ونذكر على عجلة خلاصة بعض ما ذكروه، فعن طبيعة التفكير هناك التفكير التقاربي، حيث التوصل إلى الإجابة الصحيحة من خلال المعلومات المتاحة، والتفكير التباعدي، حيث التوصل إلى عدة إجابات صحيحة اعتماداً على معلومات صحيحة مقبولة، وهناك التفكير التقويمي، حيث التوصل إلى ما هو صحيح مع إصدار الأحكام ووزن الأدلة وتقويمها[٢٢].

وتحدثت الدراسات الحديثة أيضاً عن مستويات التفكير، فله عدة مستويات هي:

التفكير التقويمي: ويغلب على ما يمكن تقويمه وتقديره من قيمة وقياس.

التفكير الناقد: حيث العمق في التفكير المنطقي ومعرفة سمات الشخصية، ويدرك من خلاله الغامض والمبهم.

التفكير التأملي: الذي يساعد الفرد على الاستبصار وإدراك حقائق الأشياء.

التفكير الإبداعي: وهو الشمولي المتعدد الجوانب، الذي يولد الأفكار الجديدة[٢٣].

ونتحدث الآن عن المصطلحات الأخرى التي قد يُظن ترادفها مع التفكر:

---

(٢٢) المزيدي، زهير منصور، مقدمة في منهج الإبداع: رؤية إسلامية، ص/٧٨. وانظر كذلك أحمد حسين اللقاني، المواد الاجتماعية وتنمية التفكير.

(٢٣) انظر مقدمة في منهج الإبداع: رؤية إسلامية ، ص/٨٠-٨١؛ محمد مصطفى زيدان، علم النفس التربوي، ص/١١؛ فؤاد فريد إسماعيل، مبادئ الفلسفة والأخلاق، ص/١٥٠.

وابتداء، فقد صرح عدد كبير من العلماء بنفي مسألة الترادف بين الكلمات القرآنية[٢٤]، والترادف هو تعدد الألفاظ بمعنى واحد، فلكل كلمة مدلولها الخاص، ولولا ذلك لما قيلت تلك الكلمة، أما ما له علاقة بالتفكر فنقول:

فالعلم هو -كما يقول الأصفهاني: "إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدهما إدراك ذات الشيء، والثاني الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه... والعلم من وجه ضربان: نظري وعملي، فالنظري ما إذا عُلِم فقد كمل نحو العلم بموجودات العالم، والعملي ما لا يتم إلا بأن يعمل كالعلم بالعبادات، ومن وجه آخر ضربان: عقلي وسمعي.."[٢٥].

أما التدبر فهو: "التفكير في دُبُر الأمور"[٢٦]، وقال الرازي: "التدبير في الأمر النظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، و التدبر التفكر فيه"[٢٧]، فهو نوع من التفكير لكنه مختص بعواقب الأمور. ومن العجيب أن التدبر جاء مقترناً بالقرآن، كما في: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾، (النساء/٨٢) و ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، (محمد/٢٤)، و ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾، (ص/٢٩)، فالله يريدنا أن لا نقف عند ظاهر النص فقط، بل بالتفكر إلى درجة التدبر والوصول إلى

(٢٤) من هؤلاء العلماء أبو هلال العسكري في كتابه: الفروق اللغوية، وابن فارس في كتابه: الصاحبي، والسيوطي في كتابه: المزهر. انظر فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص/١٧٢-١٧٥، حيث بذل جهداً مشكوراً في نفي القول بالترادف، وجاء بأمثلة كثيرة من كلمات القرآن لبيان عدم ترادفها.
(٢٥) المفردات، ص/٣٤٣.
(٢٦) المفردات، ص/١٦٥.
(٢٧) مختار الصحاح، ص/٨٣.

دبر النص، بمعنى التعمق في مدلولاته والوقوف على ما أمكن من لؤلؤه ووجوه هدايته.

والتذكر من الذكر، وهو محاولة النفس استرجاع ما زال من معلومات(٢٨)، وقال الأصفهاني: "تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره"(٢٩)، ويقول الرازي: "... والذكر والذكرى والذكرة ضد النسيان، تقول ذكرته ذكرى غير مجراه، واجعله منك على ذكر، وذكر بضم الذال وكسرها بمعنى، والذكر الصيت والثناء، قال الله تعالى: ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ أي ذي الشرف، و ذكره بعد النسيان، وذكره بلسانه وبقلبه، يذكره ذكراً و ذكرة وذكرى أيضاً، و تذكر الشيء وأذكره غيره وذكره بمعنى، و ادكر بعد أمة أي ذكره بعد نسيان، وأصله اذتكر فأدغم، والتذكرة ما تستذكر به الحاجة"(٣٠)، فنلحظ من التعريف تعلق التذكر باستحضار الشيء وعدم نسيانه، قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ...﴾، (الكهف/٦٣)، فذكر النسيان في مقابل الذكر. والذكر له علاقة بالاعتبار، فمن الذكر الذكرى التي تدل على العبرة.

والتفقه هو: "التوصل إلى علمٍ غائب بعلمٍ شاهد، فهو أخص من العلم"(٣١)، ويقول الرازي: "الفقه الفهم، وقد فقه الرجل بالكسر فقهاً، وفلان لا يفقه ولا ينقه،

---

(٢٨) انظر الكليات لأبي البقاء الكفوي، ٨٩/١.
(٢٩) المفردات، ص/١٧٩.
(٣٠) مختار الصحاح، مادة (ذكر)، ص/٩٢.
(٣١) المفردات، ص/٣٨٤.

وأفقهته الشيء هذا أصله، ثم خص به علم الشريعة، والعالم به فقيه، وقد فقهه الله تفقيهاً وتفقهه إذا تعاطى ذلك، وفاقهه باحثه في العلم"[٣٢]. وذهب عماد الدين خليل إلى أن التفقه هو خطوة عقليه أبعد مدى من التفكير، فالتفقه هو الحصيلة التي تنتج عن عملية التفكير، وتجعل الإنسان أكثر وعياً لما يحيط به وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون[٣٣]. وذهب أبو البقاء الكفوي إلى أنه العلم بغرض المخاطب من خطابه(٣٤)، ولا شك أن هذا أقل مستوى من التفكر.

والتيقن من اليقين، وكما قال الأصفهاني فهو من صفة العلم فوق المعرفة والدراية، يقال علم يقين ولا يقال معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم[٣٥]. ويقول الرازي: "اليقين العلم وزوال الشك ... وأيقنت واستيقنت وتيقنت كله بمعنى، وأنا على يقين منه، وربما عبروا عن الظن باليقين وعن اليقين بالظن"[٣٦].

أما التعقل فهو من العقل، يقول الأصفهاني: "هو القوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل"[٣٧]، ونلحظ من التعريف بالمصطلحات القريبة كلها أن لها علاقة بالعقل، فهو الوسيلة التي يتوصل بها إلى العلم والتذكر والتدبر والتفقه والتفكر...

(٣٢) مختار الصحاح، مادة (فقه)، ص/٢١٧.
(٣٣) انظر عماد الدين خليل، مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص/٩٤.
(٣٤) انظر الكليات، ١/٨٩.
(٣٥) المفردات، ص/٥٥٢.
(٣٦) مختار الصحاح، مادة (يقن)، ص/٣٠٩.
(٣٧) المفردات، ص/٣٤٢.

من خلال هذا كله يمكننا القول إن الأصل في هذا كله هو العقل، فهو الذي تبنى عليه وسائل الإدراك الأخرى، وبدونه فالإنسان عاجز عنها، بل يسقط عنه التكليف كما هو معلوم، يقول الميداني: "ولما كان واضحاً لدى الناس أن الدماغ في الرأس هو مركز التفكير، لم يحتج الأمر إلى أن يشير إليه القرآن"(٣٨).

ثم يصدر عن العقل -بحسب الدافع واستخدام الحواس- ما يمكن أن يوصله إلى الأمور الأخرى، ولكن مبدأ هذه بعد العقل هو العلم، وبعد العلم التفكير، ويصدر عن التفكير التفقه والتذكر والتدبر، كل في مجاله كما بينا سابقاً.

ولأجل هذا اختلف السياق القرآني في تحديد الغاية من عرض الآيات، فتارة تنتهي الفاصلة بـ (لعلكم تعقلون)، إن كان المطلوب مجرد استخدام العقل لإدراك المراد، وأيضاً إن كانت الحواس الأخرى كالسمع والبصر تقود إلى الأمر المطلوب، ولا ينقص الإنسان إلا إعمال عقله ليصل إلى النتيجة التي يريدها الله تعالى، ولهذا نجد اللفظ مستخدماً في أمور مشاهدة حقيقية، فليس المطلوب مزيد تفكير فيها، بل حضور العقل.

ولا بد من التعليق على صيغة (لعلكم...)، فهي بمعنى التمني والرجاء، فإن الله سبحانه وتعالى يبين في النص من الآيات الكونية والنفسية ما يرجى معه أن يتفكروا أو يعقلوا أو يتذكروا..، ونلمس من الصيغة (لعلكم) إقامة الحجة على السامع لهذه الآيات.

---

(٣٨) عبد الرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ٣١٧/١.

وقد تنتهي الفاصلة بـ (لعلكم تذكرون)، إن كان الأمر قد بُيِّن سابقاً والمطلوب مجرد التذكر، أو ليبقى هذا الأمر عالقاً في الذهن فلا ينسى، لأن من شأنه أن يُتَذكَّر، ولهذا كثر ورود التذكر بمعنى الاعتبار، وذلك في سياق الحديث عن الأمثال، أو ما حل بالأمم السابقة، أو عند الحديث عن الابتلاء والفتنة، فلا بد من أخذ العبرة، فما أصاب سبحانه من مصيبة فبما كسبت أيدينا، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾، (الشورى/٣٠).

وهناك الفاصلة المنتهية بـ (لقوم يوقنون) إن كان المطلوب هو الوصول بالعلم إلى درجة اليقين، فهو أمر مطلوب الإيمان المطلق والكامل به، وأكثر ما جاءت في سياق الحديث عن الإيمان بالآخرة، فالمطلوب في شأنها هو الإيمان إلى درجة اليقين، وجاءت في معرض الحديث عن آيات الله المبثوثة التي تدل على الصانع وحده سبحانه، فهي أمور بحاجة إلى يقين كامل.

أما ما أشار إليه الرازي –فيما اقتبسناه عنه أعلاه– من ورود اليقين ليدل على الظن، والعكس، فهذا صحيح، ولكن ليس على الإطلاق، فكلمة الظن تبقى غالباً على حقيقتها في عدم استنادها إلى علم حقيقي[٣٩]، والمهم فإن دلالات السياق هي التي تدل على هذا، ومما نذكره على دلالة معنى الظن معنى اليقين قوله تعالى:﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، (البقرة/٤٦)، فالظن هنا بمعنى اليقين، وورد لفظ اليقين مرتبطاً بالموضوع نفسه، قال تعالى:﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، (البقرة/٤).

(٣٩) على سبيل المثال فقد جاءت كلمة (يوقنون) في القرآن خمس مرات، كلها بمعنى الظن غير المعتمد على العلم إلا الآية التي ذكرناها أعلاه (البقرة/٤٦).

أما الحديث عن الفقه، وذلك بصيغة ﴿لعلهم يفقهون﴾ أو ﴿لقوم يفقهون﴾ أو (لا يفقهون) وغيرها، فهو في الغالب حديث عن المنافقين إن كانت الآيات مدنية -خاصة صيغة (لا يفقهون)، وإن كانت مكية فيغلب عليها الحديث عن أمور دقيقة لا يدركها إلا الخاصة، فهي بحاجة إلى التفكير الذي يوصل إلى التفقه[٤٠].

أما الحديث عن العلم، وذلك بصيغة (إن كنتم تعلمون) فيأتي إن كان المطلوب مجرد العلم بالشيء، ومن ثم العمل وفق ما قد عُلِم.

وأحياناً يأتي النص ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾، والتدبر جاء في القرآن في أربعة مواضع كلها متعلقة بالقرآن[٤١]، فكأن الله يريد عواقب التفكر أو التفكير بما يؤدي إليه من فهم ثم عمل، لا مجرد الترف الفكري النظري، بل التفكر الذي يقود إلى عمل.

وأحياناً يطلب النص أو الفاصلة الحديث عن (البصر) إن كان المذكور أمراً مشاهداً عجيباً، وقد تطلب أو (السمع) إن كان المذكور خبراً[٤٢]، وهكذا لكل

---

(٤٠) انظر إعجاز القرآن الكريم، ص/٢٢٩-٢٣٠، حيث ذكر المؤلف مثالاً من القرآن من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، (الأنعام/٩٨)، فختمت الأولى بالعلم كون قضية النجوم مما تعلمه العرب، بينما ختمت الثانية بالفقه كون النفوس من الأمور الدقيقة التي لا يطلع عليها إلا الخاصة، والفقه أخص من العلم.

(٤١) والآيات هي: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾، (النساء/٨٢)، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، (محمد/٢٤)، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، (المؤمنون/٦٨)، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص/٢٩).

(٤٢) انظر على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾، (السجدة/٢٦-٢٧)، فقد ختمت الأولى بطلب السمع والثانية بطلب البصر، لأن الأولى خبر عن أمم سابقة، والثانية حديث عن أمور مشاهدة، والخبر يسمع بينما المشاهَد يبصر. انظر إعجاز القرآن الكريم، ص/٢٢٨.

مجاله واستخداماته. ولكن من خلال تتبع الآيات فهناك علاقة واضحة بين البصر والتفكر، وبين السمع والفقه.

أما التفكر، وذلك بأي صيغة من صيغه، فهذا ما نسلط الضوء عليه أكثر من خلال تتبع اللفظ في النصوص التي ورد فيها، ولكننا ببساطة نقول إنه يأتي الحديث عنه إن كان الأمر بحاجة إلى إعمال الفكر لا مجرد العلم به أو التذكر أو حضور العقل أو النظر.

المبحث الثاني
منهج القرآن في استخدام مصطلح التفكر

لقد تنوعت مناهج القرآن في عرض آيات التفكر بحسب الغرض الذي أنزلت لأجله، وبحسب السياق الذي جاءت به والسورة التي وردت فيها. وقد علمنا من المقدمة أن آيات التفكر في القرآن هي ثماني عشرة آية، تنوعت في موضوعاتها وأساليبها وغاياتها.

ومن خلال نظرة عامة على النصوص نستنبط عدة مناهج روعيت في حديث القرآن عن التفكر، وسنؤجل ذكر الآيات إلى الفصل الثاني، وذلك تجنباً للتكرار:

١- لقد جاء ذكر التفكر في الغالب في سور مكية، وهذا أمر طبيعي إذ الغالب في استخدامها لإعمال الفكر كي يقود إلى معرفة الله الخالق المتفرد، ومن ثم إلى الهداية، ولا شك أن مسائل الإيمان مبنية على أمور غيبية يلزمها التصديق، فكانت في القرآن دلالات كافية في النفس والكون وسائر المخلوقات مما يدل على الواحد الأحد، وجزء من

معرفة هذه الدلالات مبني على التفكر، كما أن الفكر لا بد منه من أجل سلامة الإيمان وقوة اليقين، وكلما تعمق الإيمان وقوي اليقين كانت الإيجابية أكثر وثمار الإيمان أعظم. وجاء التفكر أربع مرات في سور مدنية، هي البقرة -مرتين- وآل عمران والحشر، للتطرق إلى مسائل من التشريع وحكمته، ولتعظيم شأن القرآن.

٢- جاء طلب التفكر (لعلهم يتفكرون) بالغيبة في ثلاث آيات، و (لعلكم تتفكرون) بالخطاب في موضعين، وبصيغة (لآية، أو آيات لقوم يتفكرون) في سبع آيات، وبصيغة الحث (أفلا تتفكرون) أو (أو لم يتفكروا) أو (ثم تتفكروا) في أربع آيات، وفي معرض الحديث عن مدح المتفكرين في آية آل عمران، ثم في الحديث عن التفكير غير السليم في آية المدثر.

٣- ورد لفظ (التفكر) في سبع عشرة آية، بينما ورد لفظ (الفكر) في آية المدثر وحدها: (إنه فكر وقدر)، وهذا دليل على الفرق بين اللفظين كما أشار إليه الأصفهاني أعلاه، فالفكر القوة المفكرة، بينما التفكير هو جولان تلك القوة بحسب نظر العقل.

٤- عرض التفكر مقترناً بالآيات الكونية العظيمة، ودقائق مخلوقات الله، وذلك للتعرف على عظمة الخالق من جهة، وعلى عظيم نعمه ورحمته بخلقه من جهة أخرى، فتحدثت الآيات عن السماوات والأرض والجبال ومد الأرض والماء المنزل من السماء والثمار والنحل وما تنتجه من عسل، وليس المطلوب العلم بها، بل التفكر الذي يقود إلى الهداية.

٥- إن الأمور التي تعلق بها التفكير هي أمور مشاهدة، أو على الأقل مما يمكن كشف أسرارها، والمطلوب التفكر فيها، ولا نجد فيها أي أمر من أمور عالم الغيب، إذ ليس مطلوباً التفكر فيها، بل الإيمان والتصديق. ونحسن الظن فيما أورده الإمام البقاعي حين قسم العالَم بما فيه من آيات دالة على الله تعالى إلى قسمين: "قسم من شأنه أن يُدرك بالحواس الظاهرة، ويسمى في عرف أهل الشرع بالشهادة والخلق والمُلك، وقسم لا يُدرَك بالحواس الظاهرة ويسمى الغيب والأمر والملكوت، والأول يدركه عامة الناس، والثاني يدركه أولو الألباب الذين عقولهم خالصة عن الوهم والوساوس"(٤٣). فإدراجه الغيب ضمن القسم الثاني قد يثير إشكالاً وتناقضاً بين آيات القرآن التي تبين أنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى، ونظن أن مقصده منه ما خفي من الدلالات التي بثها الله تعالى في النفس والكون، فهي مما يحتاج إلى عمق تفكير لا مجرد الملاحظة.

٦- تبين الآيات أن الكون كله مجال للتفكير، فقد ورد التفكر في خلق السماوات والأرض، ومد الأرض والجبال والأنهار والثمار المختلفة وإنزال الماء من السماء فينبت به النبات...، فلا حجر على الإنسان في التفكير، بل إنه يأثم إن لم يفكر فيما حوله ويعتبر، وسيمر معنا مزيد بيان حول آية التفكر من سورة آل عمران(٤٤).

---

(٤٣) نظم الدرر، ٢/٣٠٠-٣٠١.

(٤٤) وقد توسع الرازي في الحديث عند آية آل عمران عما يجوز فيه التفكير وما لا يجوز فيه التفكير، انظر تفسيره، ٤/٦٢٠-٦٢١، (ط/مكتبة الإيمان).

٧- عرض التفكر مقترناً بأمور نفسية متعلقة بالإنسان في ذاته، فمعلوم من تتبع آي القرآن أن عرض آيات الله العظمى شملت الآيات المتلوة والآيات المشاهدة، والآيات المشاهدة منها ما هو في الكون، ومنها ما هو في النفس، يقول سبحانه: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾، (الذريات/٢١)، فتحدثت الآيات عن نعمة الزواج كيف سخره الله للإنسان، وتحدثت عن الموت، المصير المحتوم، وسيقت الآيات كي لا نهمل النفس من جهة، وكي نتفكر التفكر الصحيح في حقيقة أنفسنا بناء وانتهاء، فسبحان المبدع، وسبحان من قهر عباده بالموت، وسبحان من وعد الجنة لمن أطاع، والنار لمن عصى، وهو منجز وعده ووعيده.

٨- عرض التفكر مقترناً بالأمثال البديعة، ولا شك أن في ذلك من طلب العبرة والموعظة ما فيه، فاقترنت الأمثال عموماً بمشاهد وأمور معروفة مطلوب من الإنسان تذكرها، ولكنها أحياناً تقترن بالتفكر، فالمثل هنا أمر من شأنه أن يتذكر وأن يُتفكر به، فجاء التفكر في المثل المضروب للمنفق المرائي بمن احترقت جنته وهو أحوج ما يكون إليها، وللحياة الدنيا في سرعة زوالها وتقلبها، ولمن لم ينتفع بعلمه، ولعظم تأثير القرآن الكريم، وعدم استواء الأعمى والبصير.

٩- التطرق للتفكر بلفظه المباشر وبطريقة غير مباشرة باستخدام بعض وسائل الإدراك الأخرى، فقد يرد التفكر بصورة مباشرة كما سيمر معنا في آيات الفكر، وأحياناً نجد النصوص تذكر السمع والبصر،

ونحن على يقين بأن ذكرهما لا لمجرد السمع أو البصر غالباً، بل من أجل التفكر أو التذكر.

١٠- عرض التفكر في مقابل الجمود العقلي واتباع الهوى، ويهمنا هنا ما قيل في حق الرسول ﷺ وما جاء به من وحي أعجز القوم، فما كان من القوم حين ركبوا العناد وتكبروا إلا أن يتهموا الرسول ﷺ بالجنون، وقالوا عن القرآن أنه سحر يؤثر، أو أساطير الأولين اكتتبها، وهكذا، فطلبت الآيات التفكر الحقيقي النزيه في حال النبي ﷺ، وفي هذا الوحي الموحى إليه عليه الصلاة والسلام. بل تنوعت الآيات في طلب التفكر، خاصة آية سورة سبأ التي تطلب التفكر الفردي بعيداً عن الضوضاء والغوغائية.

١١- انفراد التفكر تارة واقترانه بغيره من وسائل الإدراك تارة أخرى، بمعنى أنه يرد وحده في بعض الآيات نتيجة لورود آية واحدة تتحدث عن مسائل مما ينبغي إدراكه بإحدى وسائل الإدراك، وأحياناً يجتمع التفكر مع غيره من وسائل الإدراك، وذلك حين ترد آيات مختلفة تتحدث عن عدة ظواهر علمية أو نفسية..، فيأتي التفكر مع العقل أو التذكر أو العلم ...، ولا شك أن ما جاء مقترناً مع ألفاظ أخرى أدعى إلى الانتباه، فلا بد أن يكون للتفكر معنى محدداً، وسنبين هذا باختصار في مواضعه من الفصل الثاني، إن شاء الله تعالى.

١٢- نلحظ من الأمور التي تعلق بها التفكر أنها مسائل بحاجة إلى إقناع، والقناعة في حقيقتها ثمرة للدليل والبرهان، وهذان لا سبيل إلى

الوصول إليهما إلا بالتفكير الصحيح الذي تستخدم معه الحواس مجتمعة.

١٣- الجمع بين العقل والعاطفة، فمن منهج القرآن أنه يحشد المؤثرات قدر الإمكان، وذلك بحسب الغرض والسياق، ومن هنا فقد جمعت بعض آيات التفكر بين العقل والعاطفة في آن واحد، فالحديث عن الموت، وزوال الحياة الدنيا، وعدم الانتفاع بالخير ساعة أحوج ما يكون إليه، واقتران التفكر بالتذلل إلى الله وطلب مغفرته ورحمته، كل ذلك لا يمكن الفصل فيه بين التفكر المرشد إلى الهداية، والتفكر الباعث على مسائل نفسية داخلية تثير عاطفة الإنسان، فينقلب كيانه كله لأمر الله تعالى، المطلع على الخبايا، الذي خلق فسوى وقدر فهدى، سبحانه(٤٥).

١٤- ارتبط التفكر في أمور تشريعية، فلا يُظن أن التفكر هو للدلالات الإيمانية المباشرة فحسب، بل إن محاولة الكشف عن حكم التشريع ذات دلالات إيمانية غير مباشرة، حين نقف على التشريع نفسه من حيث روعته، وعلى المشرع الحكيم سبحانه.

١٥- وتبين الآيات ضرورة حرية التفكير، وأهمية الفكر المتحرر من الضغوط والعلاقات والغوغائية، وأهمية التفكير الفردي وتنوع طرق التفكير.

---

(٤٥) لمزيد بيان حول هذا الأمر انظر معتصم بابكر مصطفى، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، ص/٥٣ وما بعدها. وانظر أيضاً مقدمة الكتاب المذكور لعمر عبيد حسنة، ص/٩-١٠.

١٦- والقرآن لا يكتفي بأن يحث على التفكير، أو أن يدعو إلى الحياد وعدم التعصب والغوغائية، بل إنه يدعو إلى تنوع طرق التفكير، فقد يكون هناك تفكير، ولكن ضمن عادة متبعة، فتصبح العادة في التفكير هي نفسها عائقاً أمام معرفة الحقيقة، ولعل الآية من سورة سبأ تبين ذلك كما سنبين لاحقاً.

الفصل الثاني
دلالات التفكر كما بينها القرآن وعلاقتها بالسياق

ولا بد لنا هنا من الوقوف عند الموضوعات الفرعية التي تشكلها آيات التفكر، فنتحدث عنها عموماً، ثم نفرد البحث لكل آية بما يخصها، سيما ما له علاقة بالسياق.

المبحث الأول
التفكر في عظمة الخالق سبحانه

هناك ست آيات تتحدث عن الدلالات الإيمانية في تعظيم الخالق سبحانه من خلال التفكر في دقيق مخلوقاته وعظيم صنعه، فجاء فيها الحديث عن خلق السماوات والأرض، وما أبدع الله فيهما، من مدٍ للأرض وجعل الجبال والأنهار والليل والنهار وإنبات الثمار، ومن خلال الحديث عن النحل وما تخرجه من شراب مختلف ألوانه، والحديث عن النفس الإنسانية، فهي أمور تتطلب إعمال الفكر كي تقود إلى الإيمان الحق بالخالق سبحانه، فلم يخلق الله هذا عبثاً، بل لنتفكر فيها، والآيات التي جاءت في ذلك هي:

١. قولـــه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، (آل عمران/١٩١). فالآية من خواتيم آل عمران، وجاء قبلها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّـــهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. إِنَّ فِـــي خَلْـــقِ الـــسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾، (آل عمران/١٨٩-١٩٠). وجاء بعدها سلسلة من الأدعية إلى الله تعالى بالرحمة.

فالآيتان قبلها فيهما حديث عن ملك الله للسماوات والأرض، فهو وحـــده المتصرف فيهما، وهو على كل شيء قدير، ثم تحدثت الآية التي تليها عن ضـــرورة تفكر أولي الألباب في خلق السماوات والأرض، وما ينتج عنهما من اختلاف الليل والنهار، فهي أمور مشاهدة واقعة، لكن أولي الألباب هم الذين يعملون فكـــرهم ويسخرون جوارحهم كي يصلوا إلى عظمة الخالق، وعندها يعلمون أنه لا متصرف في هذا الكون إلا الله، فيتوجهون إليه بالدعاء أن يرحمهم ويقيهم عـــذاب النـــار وخزي يوم القيامة..، الخ. روى البخاري عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا قَالَ: بِتُّ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ وَالنَّبِيُّ ﷺ عِنْدَهَا، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ أَوْ بَعْضُهُ قَعَدَ فَنَظَـــرَ إِلَى السَّمَاءِ فَقَرَأَ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَـــاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾[٤٦].

ويلفت القرطبي النظر إلى اجتماع ذكر الله مع التفكر في هذه الآية، فهو إما ذكر باللسان وإما الصلاة: فرضها ونفلها، فعطف تعالى عبادة التفكر في قـــدرة الله تعالى ومخلوقاته على عبادة الذكر، والعبر التي بثها ليكون ذلك أزيد في بصائرهم:

(٤٦) رواه في الصحيح، برقم: ٤٥٦٩.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد(٤٧).

وموضوع السورة يدور حول محورين أساسيين، الأول: حيث المحاجة لنصارى نجران، وذلك في بضع وثمانين آية من أولها(٤٨)، والثاني حيث الحديث عن غزوة أحد وما جرى فيها، حيث الهزيمة المادية، وذلك في ستين آية (١٢٠-١٨٠)(٤٩)، ثم الختام بشيء من قبيح أقوال يهود في حق الله تعالى، ثم يأتي التوجيه الإيماني للنفس باللجوء إلى مصدر القوة واليقين والتصرف في هذا الكون، فكان الحديث عن السماوات والأرض والليل والنهار، إنها نقلة بعيدة للنفس من محيط المشاهَد البسيط من حولنا إلى آفاق السماوات للنظر والتفكر، فحقيقة تعاملنا هو مع إله عظيم حقه أن يعبد ويُدعى، وهو على كل شيء قدير، وإن ابتلى عباده فلحكمة، وإن منح أو منع فلحكمة، فليست أفعاله صادرة عن فوضى أو صدفة، فكأنه سبحانه يوجه عباده أن ما أصابهم في أحد فلحكم كثيرة، فهو سبحانه الذي له ملك السماوات والأرض، وهو المتصرف فيهما سبحانه.

ومن هنا ناسب أن يكون التفكر مقصوداً لذاته، فهو ليس مجرد التعقل أو العلم أو التذكر أو غيرها، إنه التفكير الموصل إلى تعظيم الحق سبحانه ومداومة ذكره، والتسليم له فيما حكم وقضى.

---

(٤٧) تفسير القرطبي، ٣١٠/٤. وانظر أيضاً ابن عاشور في التحرير والتنوير، حيث تطرق إلى مثل كلام القرطبي، ١٩٦/٤-١٩٧.

(٤٨) انظر الواحدي، أسباب النزول، ص٦٧؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢٠٧/٢؛ تفسير الطبري، ١٠٨/٣؛ أبو حيان، تفسير البحر المحيط، ٣٧٣/٢؛ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٥٤/٧. وانظر كذلك طائفة من الأحاديث التي دلت على قدومهم إلى رسول الله ﷺ في المدينة، وقد قدموا مرتين، في بداية العهد المدني وفي عام الوفود، انظر صحيح البخاري، الأحاديث: ٤٣٨٠-٤٣٨٢.

(٤٩) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٥٢/١؛ محمد قطب، دراسات قرآنية، ص/٣٠٩.

٢. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (الرعد/٣). فالسورة ابتدئت في الحديث عن الإله الحق سبحانه، وهو الذي رفع السماوات بغير عمد نراها، واستوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، وهو سبحانه يدبر الأمور، ويفصل الآيات لعلنا نصل إلى درجة اليقين بلقاء الله تعالى، ثم في الآية الثالثة من السورة يتحدث سبحانه عن مد الأرض، وكيف جعل فيها الجبال رواسي وجعل الأنهار، وجعل من كل شيء زوجين كي تسير الحياة، وهو الذي يجعل الليل والنهار متعاقبين، ففي هذا كله آيات لقوم يتفكرون.

وبعد هذه الآية يذكر الله تعالى مجموعة من الآيات الأخرى، حيث القطع المتجاورات، وجنات الأعناب والزرع والنخيل، كيف يسقى بماء واحد، لكن الطعم مختلف، ففي هذا آيات لقوم يعقلون، ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، (الرعد/٤).

وهنا لا بد من وقفة بسيطة حيث اجتمع ذكر العقل والفكر، فالعقل ذكر في سياق الحديث عن أمور مدركة تمكن رؤيتها وذوقها، فالمطلوب -كما قلنا- مجرد إعمال العقل لإدراك عظم حقيقتها. أما ما تعلق بالتفكر فهو أمر مشاهد أيضاً ولكن لا بد من عمق الفكر للوصول إلى الدلالات الإيمانية فيه، فلا يمكن تحسسه أو إدراك مغزاه بالعقل فقط، بل لا بد بعد العقل من فكر يقود إلى فهم العلاقة بين

الأمور المذكورة. ولذلك قال ابن عاشور: "جيء في التفكر بالصيغة الدالة على التكلف، وبصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد ومكرر"(٥٠).

٣. قوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (النحل/١١). وهنا فنحن في سورة كثر الحديث فيها عن النعم التي منّ الله بها على عباده، والعجيب في الآية أنها تشبه آية الرعد الرابعة أعلاه، والتي جاء فيها الحديث عن العقل، ولا بد من وقفة أخرى هنا، حيث التشابه بينهما، والذي يتضح أنّ آية الرعد تتحدث عن اختلاف مذاق النبات رغم أنه يسقى بماء واحد، وهي آية عظيمة تدل على بديع صنع الله تعالى، بينما هنا فالحديث عن كيفية إنبات النبات بهذا الماء النازل من السماء، فالشيء المطلوب هو التفكر فيه، كيف يكون، ولا بد من عمق عقلي إلى درجة التفكر كي نصل إلى حقيقة هذه الآية العظيمة الدالة على دقيق صنع الله تعالى.

ولذلك قال ابن عاشور: "ونيطت هذه بوصف التفكير لأنها دلالة خفية لحصولها بالتدرج"(٥١).

أما أنه تعالى ذكر هنا (إن في ذلك لآية)، وفي الآية بعدها: (لآيات)، وفي التي بعدها (لآية) فبالنظر إلى أن ما جاءت فيها الصيغة مفردة فهي متعلقة بالإنبات، وهو آية واحدة، أما ما جاء فيه الجمع فلاختلاف أحوال الشمس والقمر...(٥٢).

---

(٥٠) التحرير والتنوير، ٨٥/١٣.
(٥١) التحرير والتنوير، ١١٥/١٤.
(٥٢) انظر تفسير الرازي، ٤٨٤/٩؛ التحرير والتنوير، ١١٧/١٤.

٤. قولــه تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (النحل/٦٩). ففي هذه الآية حديث عن أمر عجيب، كيف ألهـم الله النحـل أن تسكن الجبال والشجر، وأن تأكل من كل الثمرات، وكيف يخرج مـن بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، فهو أمر عجيب حقاً، لا نقف فيه عند حدود رؤية العسل يخرج من بطون النحل، بل في كيفية تكون العسل، وكيفية تكـاتف مجموعات النحل معاً في خلاياهم، وكيفية بناء بيوتها العجيبة الصنع، بهذه الدقـة الهندسية، وأيضاً التفكير في كيفية كون العسل شفاء للناس بإذن الله تعالى، فهـذه أمور لا يمكن إدراكها بمجرد العقل والنظر دون إعمال للفكر.

يقول الآلوسي: "إن من تفكر في اختصاص النحل بتلـك العلـوم الدقيقـة والأفعال العجيبة التي مرت الإشارة إليها وخروج هذا الشراب الحلـو المختلـف الألوان وتضمنه الشفاء جزم قطعاً أن لها رباً حكيماً قادراً ألهمها ما ألهم وأودع فيها ما أودع، ولما كان شأنها في ذلك عجيباً يحتاج إلى مزيد تأمل ختم سبحانه الآيـة بالتفكر"(٥٣).

ويفسر القرطبي التفكر هنا بالاعتبار، ويقول: "فمن العبرة في النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفكر في عجيب أمرها، فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة وحذقها باحتيالها في تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى، كما قال

(٥٣) تفسير الآلوسي، ١٨٢/١٤.

﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾، ثم إنها تأكل الحامض والمر والحلو والمالح والحشائش الضارة فيجعله الله تعالى عسلاً حلواً وشفاءً، وفي هذا دليل على قدرته"[٥٤].

ولا بأس بأن نقف عند آيات سابقة لهذه، ففي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، (النحل/٦٥)، فهي شبيهة بآية النحل/١١ أعلاه، ولكن ذكر السمع هنا يمكن أن يتصور منه أكثر من شيء، والمهم هو أنّ الذي يَعْتَبِرُ هو الذي يسمع، ولا يكتفي بمجرد السمع، بل يقوده سمعه لهذا الخبر بأن يتفكر فيه[٥٥].

والآية الأخرى هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾، (النحل/٦٦)، فخروج اللبن من بين فرث ودم أمر عجيب حقاً[٥٦]، والآية صُدرت بأن في هذا آية وعبرة عظيمة، من شأنها أن تقود أيضاً إلى تعظيم الخالق وشكره على جزيل نعمائه، و لم يأت في شأنها ذكر العقل ولا التفكر، بل ما يقود إلى العبرة، والعبرة لا تحدث من دون تفكر، والتفكر لا يكون من دون عقل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، (النحل/٦٧)، فهي أمور يمكن إدراكها بالعقل، حيث يجعل الإنسان من ثمرات النخيل والعناب المسكر أو الأمور النافعة

(٥٤) تفسير القرطبي، ١٢٦/١٠.
(٥٥) انظر فتح القدير، ١٧٨/٣.
(٥٦) الفرث ما يتبقى من آثار الطعام المهضوم فيترل إلى الكرش، يقال: أفرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها وبعد الخروج يسمى روثاً، فاللبن يخرج من بين فرث ودم، فسبحان من أبدع هذا فأخرجه شراباً سائغاً لذيذاً، سهل مدخله في الحلق، انظر معاني القرآن للنحاس، ٨١/٤؛ تفسير الآلوسي، ١٧٦/١٤-١٧٨؛ فتح القدير، ١٧٨/٣.

الأخرى (كالثمر والدبس والزبيب والخل)[٥٧]، فليعقل فعله، وليميز بين النافع والضار منها، والآية -كما هو معلوم- قد نزلت قبل تحريم الخمر[٥٨]، ولكن الإشارة فيها واضحة إلى أن المسكر شيء غير حسن.

٥. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾، (الروم/٨). والاستفهام هنا إنكاري، فلِمَ لا يتفكرون في أنفسهم، ففي النفس دلالات واضحة على قدرة الله تعالى، ثم إنهم لم يكونوا شيئاً من قبل، وإن الله تعالى لم يخلق الإنسان ولا الكون عبثاً، بل خلق كل شيء بالحق. فالمطلوب التفكر في النفس، وفي المصير الذي ينتظر الإنسان بعد الموت، فلكل نفس أجل مسمى، وإن السماوات والأرض وما بينهما من عجائب خلقه تعالى، كالنجوم والكواكب لم تخلق عبثاً، بل خلقها لأمر حق، ولها أجل مسمى، فالسماوات والأرض تنتهي يوم القيامة، ومن باب أولى أن النفس أيضاً تموت، فلماذا لا يتفكرون في هذه الآيات.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن (في أنفسهم) هنا هي ظرف للتفكر وليس مفعولاً له، إذ المقصود التفكر في السماوات والأرض وما بينهما، يقول الشوكاني: "والمعنى أن أسباب التفكر حاصلة لهم، وهي أنفسهم، لو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانية الله وصدق أنبيائه"[٥٩].

---

(٥٧) انظر تفسير أبي السعود، ١٢٥/٥؛ فتح القدير للشوكاني، ١٧٩/٣. وانظر كذلك معاني القرآن للنحاس، ٨١/٤-٨٢.
(٥٨) انظر تفسير أبي السعود، ١٢٥/٥؛ فتح القدير، ١٧٩/٣.
(٥٩) فتح القدير، ٢٠٨/٤، وانظر القرطبي، ٨/١٤؛ التحرير والتنوير، ٥٢/٢١.

وإذا دققنا النظر في مطلع هذه السورة فهي تتحدث عن غلبة الفرس للروم، ثم فيما سيجري بعد ذلك من غلبة الروم للفرس، فالله قادر على مداولة الأيام سبحانه، ومنها قدرته على نصركم أيها المسلمون، يقول لهم هذا في العهد المكي حيث الابتلاء والتعذيب والتنكيل بالمستضعفين، ويعلمنا سبحانه أنه لا يبقى شيء على ما هو عليه. ثم يتحول السياق للحديث عن قلة علم أكثر الناس، فهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، بينما هم عن الآخرة غافلون، ثم تأتي هذه الآية، وبعدها يأتي ما يؤكد هلاك الأمم وانتهاء أمرها، بالرغم من أنها أشد قوة من قريش فانتهى أمرهم وزالت قوتهم.

ومن هنا نجد الآية أعلاه في مكانها، وذكر التفكر فيها مطلوب للاعتبار كي نصل إلى درجة اليقين في حتمية لقاء الله تعالى.

٦. قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (الجاثية/١٣). فقد جاءت هذه الآية بعد مجموعة من الآيات (من أول السورة)، وهي تتحدث عن مظاهر قدرته تعالى، ومظاهر إنعامه على خلقه، ففي الآية الثالثة حديث عن أن في السماوات والأرض آيات للمؤمنين، وفي الآية الرابعة حديث عن خلق الإنسان، وعما يبثه الله من دابة، أنها آيات لقوم يوقنون، وفي الآية الخامسة يأتي الحديث عن اختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح، ففي هذه آيات لقوم يعقلون، ثم ينتقل السياق للحديث عن المكذبين، الذين يسمعون آيات الله تتلى عليهم ولا يعتبرون، ثم الحديث عن مصيرهم الأخروي، ثم يعود السياق ليعرف الإنسان بنعم الله عليه، فيبدأ بالحديث عن تسخير البحر لتجري الفلك فيه

بأمره وليبتغوا من فضله، وختمت بقوله (ولعلكم تشكرون)، ثم تأتي الآية موضوع الدراسة، حيث تسخير ما في السماوات وما في الأرض جميعاً، فهي كائنة منه سبحانه، فسخر الشمس والقمر والنجوم والمطر والسحاب والرياح.

إنها روعة القرآن العظيم، فلننظر كيف ختمت كل آية من الآيات السابقة، فلمّا كان الحديث عن عموم السماوات والأرض قال سبحانه إن فيها آيات للمؤمنين، فلا يعتبر بشأنها إلا المؤمنون. ولما تحدث عن اختلاف الليل والنهار وإنزال الماء من السماء وتصريف الرياح قال: (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)، فالأمر ليس بحاجة إلا لإعمال العقل. ولما جاء إلى أمور سخرها الله تعالى، فهذه مواضع نعم خالصة، فوجب ذكر الشكر، فجاءت الفاصلة بعد الحديث عن تسخير البحر بـ (لعلكم تشكرون)، وهذه الآية ختمت بالتفكر، حيث إن التسخير الوارد في السماوات والأرض غير مشاهد مباشرة، وهو أمر عظيم، فناسب ذكر التفكر الذي هو أبعد من التعقل، ومسألة الشكر فيها أوجب، فمن تفكر فيها أدرك عظمة الله وقدرته، وشكر الله تعالى، وأدى حق الشكر.

نلحظ من هذه المجموعة أن التفكر تعلق بأمور مشاهدة يمكن أن نعمل فيها عقولنا، ونلحظ أنها أمور عظيمة كالسماوات، وبسيطة كفعل النحل وخروج العسل، لكنها دقيقة ملفتة للنظر، متطلبة للتفكر كي نتوصل به إلى تعظيم الخالق سبحانه.

ويذكر الآلوسي أن "الذي عليه أئمة التفسير أنه سبحانه إنما خصص التفكر بالخلق للنهي عن التفكر في الخالق لعدم الوصول إلى كنه ذاته وصفاته جل شأنه وعز سلطانه"[٦٠].

ونذكر في هذا الشأن ما قاله بعض العلماء في أهمية التفكير في مخلوقات الله تعالى الدالة على عظمته وجزيل نعمه، قال بشر بن الحارث: "لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه"، وقال عمر بن عبد العزيز: "الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة"[٦١]، ولنتذكر تفكر الرسول ﷺ وهو في الغار، وتفكر غيره ممن قادهم التفكير إلى نور الهداية، حين تعمقوا في الظواهر من حولهم، فالتفكير من أعظم العبادات[٦٢].

المبحث الثاني
التفكر في حقيقة النبوة والرسالة

وجاءت فيها آيات تتحدث عن حقيقة النبوة والرسالة، وذلك فيما يبين حقيقة أمرهما، وارتباطهما بالوحي والمعجزة، ونفي تهمة الجنون عن النبي ﷺ، وتهمة افتراء القرآن من أن يكون من عند غير الله تعالى، فقد يلعب التقليد الأعمى والاتباع بلا دليل والإعجاب بالرأي كل ما من شأنه تشويش حقيقة الرسالة، فجاء الحث على التفكير كي يوصل إلى الحقيقة، وخص في هذا الشأن التفكير المحايد البعيد عن الضوضاء والغوغائية، والآيات التي وردت في ذلك هي:

(٦٠) الآلوسي، محمود شكري، روح المعاني، ١٥٧/٤.
(٦١) انظر هذين القولين وغيرهما عند ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ص/١٨٠-١٨٦. وانظر أيضاً العقل والعلم في القرآن الكريم، ص/٤٥-٤٦.
(٦٢) انظر محمد عابدين، الإيجاز في آيات الإعجاز، ص/١٦٠.

١. قولـــه تعالى: ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْـــبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾، (الأنعام/٥٠). فقد جاءت هذه الآيات بعد الحديث عن سنة إهـــلاك الأمم المكذبة لرسلها، وما هو جدير بالأمم من حسن الإيمان بالله المنعم المتفـــضل على عباده بالخيرات، ومنها سمعهم وأبصارهم، ثم يبين سبحانه أنه لا يرسل الرسل إلا مبشرين ومنذرين، وينقسم الناس تجاههم إلى مؤمن ومكذب، ثم تأتي هذه الآية التي تبين حقيقة الرسول وأنه بشر مثلهم ولا يفترق عنكم إلا أنه يأتيكم بالوحي من عند الله تعالى، فلا تظنوا أنه يملك خزائن الأرض أو أنه يعلم الغيب أو أنه ملـــك، وهذه الآية تبين ما طلبه القوم من الرسول ﷺ من أمور من أجل أن يؤمنوا، فـــرد عليهم الرسول بذلك، وقال تعالى: ﴿قل هـــل يستوي الأعمـــى والبـــصير أفـــلا تتفكرون﴾، والاستفهام للإنكار، والمراد أنه لا يستوي الضال والمهتدي، ومن اتبع الهدى ومن لم يتبعه، والمسلم والكافر، فليتفكروا في ذلك ليجدوا عـــدم الاســـتواء بينهما، والاستفهام في ﴿أفلا تتفكرون﴾ للتوبيخ والتقرير(٦٣)، أي ألا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون فيه، أو أتسمعونه فلا تتفكرون؟

وفي الأعمى والبصير ثلاثة احتمالات: إما أن يكونا مثالاً للضال والمهتدي، أو مثالاً للجاهل والعالم، أو مثالاً لمدعي المستحيل كالألوهية والملكية ومدعي المستقيم كالنبوة، وأن المعنى: لا يستوي هذان الصنفان أفلا تتفكرون في ذلك فتهتدوا وتميزوا بين ادعاء الحق والباطل، أو فتعلموا أن اتباع الوحي مما لا محيص عنه(٦٤).

(٦٣) انظر تفسير ابن كثير، ٤٣٠/٦؛ التحرير والتنوير، ٢٤٣/٧-٢٤٤.
(٦٤) انظر تفسير الآلوسي، ١٥٦/٧-١٥٧.

وهذا الأمر وإن كان يدرك لمن له أدنى عقل، فلا يستوي الأعمى والبصير، إلا أن التفكر المذكور مقصود منه أبعد من إدراك الفرق بين الأعمى والبصير، إنه تفكر كذلك في مسألة النبوة والرسالة، فلا يمكن عزل فاصلة الآية عن موضوعها، وينبغي للتفكير السليم أن يقود إلى حتمية أن يبلغ الله عباده ما يريد عن طريق الرسل الذين هم حجة الله على عباده، و لم تقتض حكمته سبحانه أن يخاطب كل إنسان أو يرسل الوحي لكل إنسان، فلِمَ يستغرب بعض الناس من أن يكون الرسول بشراً، أو أن يكون هذا الشخص أو ذاك، فلا بد من رسول، ولا بد من التصديق بما يبلغه، وعندها ينقسم الناس -كما ذكرت الآيات قبلها- بين متبع ومكذب. ونلفت النظر أن سورة الأنعام في عمومها إنما جاءت لتقرر مبادئ العقيدة، ومن ذلك مسألة النبوة[٦٥].

٢. قوله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، (الأعراف/١٨٤). وهذه الآية والآية القادمة تتحدثان عن التفكر في أمر الرسول ﷺ، هل هناك ما يدعو أو يشير إلى أن به شيئاً من الجنون[٦٦]، والمطلوب التفكير في هذا بعيداً عن الضوضاء والتقليد والتعصب للباطل.

---

(٦٥) ففي الآيات الأولى منها يقول رب العزة سبحانه:﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ. وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، (الأنعام/٨-١٠)، وقال بعدها: "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ. وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، (الأنعام/٣٣-٣٥)، وغيرها من الآيات.

(٦٦) هناك مجموعة من الآيات تحكي مقولة المشركين بأن محمداً ﷺ مجنون، بل في القرآن ما يدل على أن كل الرسل تعرضوا للتهمة نفسها، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، (الذريات/٥٢)، ومما جاء في حق نبينا قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ

وهذه الآية من سورة الأعراف التي بينت أمور العقيدة، خاصة عن طريق الحوار الذي كان بين الأنبياء وأقوامهم، ولذلك كثر فيها القصص، حيث ذكر الله قصة آدم وإبليس، ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ثم يأتي السياق للحديث عن سنة إرسال الرسل وإهلاك الأمم (الآيات:٩٤-٩٩)، ثم تأتي قصة موسى مع فرعون ومع قومه، وبعض ما ارتبط ببني إسرائيل، وتنتهي السورة بتوجيهات عامة، منها هذه الآيات التي تتحدث عن نبوة محمد ﷺ، بأن يتفكر القوم هل بصاحبهم من جنة!؟ والاستفهام في (أو لم) للإنكار، فما هو إلا نذير مبين، ﷺ، وهم يعرفون أصله وتاريخه وخُلُقه، فلم تشكون في نبوته[٦٧].

وهكذا نجد الآيات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموضوع السورة بشكل عام، ولكننا نعود للحديث عن طلب التفكر في حال الرسول ﷺ، فالمطلوب تفكر حقيقي في أمره بعيداً عن أي مؤثر جانبي، وهي دعوة للعقل بأن يتحرر من الهوى والتقليد وسابق القول، فهل به جنون، ولو تفكروا جيداً لقادهم تفكيرهم إلى حقيقة أمره ﷺ كما كانوا يعرفونه من قبل، الصادق الأمين.

وهكذا يتبين لنا أن المطلوب التفكر لا مجرد حضور العقل أو السمع أو البصر، فهو التفكير الذي ينتج عنه تصور حقيقي عن النبي ﷺ، ليَسْهُلَ بعد ذلك التلقي عنه والاتباع الحقيقي له.

الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، (الحجر/٦)، ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾، (القلم/٥١)، ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، (القلم/٢)، ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾، (التكوير/٢٢).

(٦٧) انظر تفسير البيضاوي، ٣/٧٨؛ تفسير ابن كثير، ٢/٢٧١.

٣. قولـــه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُـــمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَـــذَابٍ شَـــدِيدٍ﴾، (سبأ/٤٦). وهذه الآية كسابقتها، وهي في سورة تحدثت عن جوانب من القصص، ولكنها في بداياتها ذكرت بعض أقوال المشركين في حق رسول الله ﷺ، وأنه يمكن أن يكون مجنوناً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾، (سبأ/٧-٨)، وقد جاءت الآيات في سياق الحديث عن البعث وإنكار القوم له، فجاء استهزاؤهم بالرسول ﷺ من هذا الباب، أنه يقول إنكم إذا مزقتم وفرقتم وكنتم تراباً ورفاتاً أنكم ستخلقون خلقـــاً جديداً، وتبعثون من قبوركم أحياء، وبهذا فهم من الرسول بين أمرين: إمـــا أنـــه كاذب فيما أخبرنا به أو أن به جنوناً فلا يعقل ما يقول.

ورد الله على هؤلاء الكافرين بالآخرة بأنهم في العذاب والـــضلال البعيـــد، ووبخهم بما هم عليه من التكذيب، وما قالوا ما قالوا إلا لعدم التفكـــر والتـــدبر في مخلوقات الله تعالى، ومنها السماوات والأرض، فمن خلق هذا الخلق العظيم قـــادر على بعثهم من بعد موتهم، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾، (ســـبأ/٩)، وبعدها جاءت قصتا داود وســـليمان باختصار، وقصة سبأ، وما حل بهم نتيجة التكذيب، وفي هذا تهديـــد لقومـــه ﷺ، لعلهم يرشدون.

وتستمر الآيات في بيان جوانب من كفر القوم بالله تعالى وتكذيب الرسول بما جاء به عن ربه، إلى أن تأتي هذه الآية من آخر السورة، فيأمر الله رسوله بأن يعظ القوم ويوصيهم بوصية واحدة: أن يقوموا ويجتهدوا في طلب الحق بالفكرة الصادقة، متفرقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً، فالاجتماع قد يشوش الفكر، والازدحام قد يشوش الخاطر، فليطلبوا الحق وليصدقوا الفكر، فيتفكروا في أمر النبي ﷺ، هل هو مجنون فعلاً كما يروّجون، فليقل الرجل لصاحبه: هلم فلنتصادق، هل رأينا بهذا الرجل من جنة أو جربنا عليه كذباً؟ ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه، فيتفكر وينظر، وسيجد أن محمداً صادق وأنه رسول من عند الله مبلغ عنه(٦٨).

وقد تطرق ابن عطية لتقديم (مثنى) فقال: "وقدم المثنى لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحد، فإذا انقدح الحق بين الاثنين فكر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة"(٦٩).

وهكذا نجد أهمية الفكر في هذا المقام، والحقيقة أن العقل في هذا يكفي، ولكن عند اجتماع الأقوال الباطلة والتشويش فلا بد من حضور أعمق للعقل، وهو التفكير السليم البعيد عن المؤثرات، وما أروعها من آية ترشد كل الأتباع إلى التفكر فيما هم متبعون له، وماهية من هم متبعون لهم، والعجيب في أمر هذا القرآن أن السورة بينت جانباً من حوار الأتباع والمتبوعين في الآخرة، ويا له من حوار يعكس الندم والألم، حين كذبوا الرسول وكفروا بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

(٦٨) انظر البيضاوي، ٤/٤٠٦؛ تفسير القرطبي، ١٤/٣١١-٣١٢؛ فتح القدير، ٤/٣٢٣؛ في ظلال القرآن، ٥/٢٩١٤.

(٦٩) المحرر الوجيز، (تفسير ابن عطية)، ١٢/٢٠٢.

يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، (سبأ/٣١-٣٣).

٤. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، (المدثر/١٨-١٩)، والآية من ضمن مجموعة من الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة(٧٠)، والسياق العام لها هو بيان بعض ما قيل في حق النبي ﷺوالقرآن، فانتهى المقام بالوليد أنه فكر في شأن النبي والقرآن، وقدر أي هيأ في نفسه من الكلام ما يقول، فذمه الله تعالى بقوله (فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر)، والقتل بمعنى اللعن، وذلك على ما هيأه في نفسه من قول، (ثم نظر) أي بأي شيء يذم القرآن، (ثم عبس وبسر) أي قطب وجهه وكلح لما لم يجد شيئاً يذم القرآن به، (ثم أدبر واستكبر) أي عن الحق، وصد عن الإيمان، (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر)، فما يأتي به محمد هو سحر يرويه عن غيره، وهو كلام إنس وليس بكلام الله[٧١].

ولنا أن نقف عند تفكير الوليد وتقديره، فتقديره لم يكن صحيحاً، حيث ذمه الله تعالى مباشرة على تقديره، وهذا ناتج عن عدم إعمال الفكر بالصورة الصحيحة، بل كان الهوى والعناد والاستكبار، وقد بينت بعض الروايات أنه قال

---

(٧٠) انظر تفسير الطبري، ١٥٦/٢٩؛ لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، ص/٢٢٣-٢٢٤؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٣٢٩/٨.
(٧١) انظر تفسير الطبري، ١٥٦/٢٩؛ تفسير ابن كثير، ٤٤٣/٤؛ تفسير النسفي، ٢٩٥/٤.

هذا الكلام إرضاء لقومه، وإلا فقد اعترف بأن للقرآن حلاوة، وأن عليه طلاوة...[72].

ونلحظ هنا من مجموع هذه الآيات أن الآيتين الثانية والثالثة قد تطرقتا لموضوع الجنون صراحة وضرورة التفكير في تهمتهم تلك، بينما ركزت الأولى على بيان بشرية الرسول ﷺ، وأنه مجرد رسول يوحى إليه، ومما أوحي إليه هذا القرآن الذي يتحداكم به كي تأتوا بمثله أو بسورة من مثله. أما الآية الأخيرة فهي تتحدث عن ظلم التقدير بعد التفكير فيما أوتي محمد ﷺ من الوحي، ليقال عنه بأنه سحر يؤثَر. وقد بينت الآية لفظ (فكر) و لم تقل (تفكر)، وإذا رجعنا إلى أقوال العلماء في معاني التفكر لأدركنا سر إعجاز القرآن في الإتيان بـ (فكر) هنا، فالوليد لم يتفكر بأن يجول بقوة عقله بحسب نظر العقل، فلم يتفكر حقيقة، بل اقتصر على الفكر، وأتبعه بإساءة التقدير، فكان ما كان من قول بلا دليل، واتباع لهوى أعمى، وإرضاء للنفس والغير من دون إدراك لعاقبة الأمور.

المبحث الثالث
التفكر في عظمة القرآن وأهمية تدبره

إن الحديث عن تعظيم شأن القرآن وأهمية تدبره أمر جدير بالتنويه وطلب التفكر، فإذا تذكرنا أن الذي ارتبط بالقرآن أكثر هو التدبر، فإن ما دلت عليه الآيات هنا –خاصة الثانية– هو التفكر في حقيقة القرآن وتعظيمه، فإنه قول ثقيل

---

(٧٢) انظر تفسير الطبري، ١٥٦/٢٩؛ تفسير النسفي، ٢٩٥/٤؛ تفسير ابن كثير، ٤٤٣/٤؛ فتح القدير، ٣٢٤/٥.

عظيم التأثير، ولا بد من إعمال الفكر كي نصل إلى آثار ذلك في النفس، وقد وردت آيتان تبينان ذلك هما:

١. قوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (النحل/٤٤)، وهنا فنحن أمام موضوع آخر مما جاء فيه التفكر في كتاب الله تعالى، إنه موضوع تدبر القرآن الكريم، وقد بينا سابقاً أن التدبر ارتبط بالقرآن، وهنا فقد جاء اللفظ بالبيان وأسند للرسول ﷺ، وترك المجال مفتوحاً للناس بأن يتفكروا في هذا القرآن، وفيما يبينه الرسول ﷺ للناس، فنحن أمام تفكر وتدبر.

وبهذا يجتمع للقرآن ثلاثة أمور ذكرها الله تعالى إضافة إلى تلاوته، هي البيان والتدبر والتفكر، وكما قلنا فالتدبر هو نوع تفكر، لكنه في دبر الأمور وعواقبها، وبهذا يتقلص الأمر إلى اثنين: البيان والتفكر، فالبيان قد يراد منه مجرد إعطاء المعنى، بينما التفكر والتدبر شيء إضافي، إنه البحث الدقيق والغوص في معاني القرآن، فهو كتاب من شأنه أن نتفكر فيه في أحكام الله وتشريعاته وآياته وقصصه وأمثاله...

ودلالة السياق واضحة في تأكيد موضوع التفكر، والآية قبل هذه تحدثت هي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾، (النحل/٤٣)، فهي مهمة الرسل وما يوحيه الله إليهم، والتوجيه للناس بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا لا يعلمون، وقوله (بالبينات والزبر) فهو متعلق بـ (أرسلنا)، والمعنى على بعض الأقوال: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً بالبينات والزبر، أو: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً، وعلى العموم، فالسياق فيه تعلم وتعليم، ويناسب هذا الحديث عن البيان والتفكر.

وفي الحث على التفكر الوارد في فاصلة الآية دليل على أهمية الاتعاظ بهدي القرآن وأحكامه وتوجيهاته، فمن شأن القرآن أن تصرف الجهود لفهمه والوقوف على هدي آية وعبرها، فالعاقل هو الذي يعمل فكره ويتعظ.

يقول الآلوسي: "التبيين أعم من التصريح بالمقصود ومن الإرشاد إلى ما يدل عليه، ويدخل فيه القياس وإشارة النص ودلالته وما يستنبط منه من العقائد والحقائق والأسرار الإلهية، ولعل قوله ﷻ ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ إشارة إلى ذلك، أي وطلب إن يتأملوا فينتبهوا للحقائق وما فيه من العبر ويحترزوا عما يؤدي إلى ما أصاب الأولين من العذاب"[٧٣].

وقد يفهم من ذكر التفكر في آخر الآية جواز الاجتهاد في تفسير القرآن ما دام الواحد يملك أدوات التفسير التي بسط العلماء ذكرها، وأهمها العلم بالقرآن نفسه والسنة واللغة وآثار الصحابة الكرام، وعلوم القرآن ذات الدلالة المباشرة بتفسير القرآن.

٢. قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (الحشر/٢١)، وهذه الآية نمط آخر في بيان عظيم أثر القرآن، فإن من شأنه أن تخشع له القلوب، وترق له الأفئدة، فمن قوة تأثير القرآن وعظمته وبلاغته ومعانيه وما فيه من أحكام، أن لو نزل على جبل لرأيت الجبل مع كونه في غاية الرسوخ والصلابة والضخامة خاشعاً متشققاً من خشية الله تعالى.

(٧٣) تفسير الآلوسي، ١٥٠/١٤.

ثم يختم الله الآية ببيان أنه تعالى يضرب مثل هذه الأمثال للناس لعلهم يتفكرون في شأن القرآن فيتعظوا به وتخشع قلوبهم له، وفي هذا توبيخ لكل من لم يخشع للقرآن ويتعظ به بسبب قساوة قلبه وقلة تدبره(٧٤)، سواء من الكفار الذين أنكروه مع أنهم سمعوا عجيب آياته، أو من المسلمين الذين أعرضوا عنه تكاسلاً وهجراناً.

وقد يفهم من الآية الامتنان على محمد ﷺ، بأن من شأن القرآن أن يكون ذا تأثير عظيم على من نزل عليه، وقد أيدك الله وثبتك وقواك من أجل تحمله، فتحملت ما لم تتحمله الجبال(٧٥).

وأياً ما كان فالمطلوب منا التفكر في عظيم تأثير القرآن، وإن له مثل هذا التأثير حقيقة، فأين المتدبرون الخاشعون المعتبرون بالقرآن؟

أما عن السياق فقد جاءت الآية في سورة الحشر التي تحدثت عن اليهود والمنافقين، ومن ثم التوجيه للمؤمنين بأن يتقوا الله ويخشوه ويعملوا للدار الباقية، وأن لا يكونوا من الذين نسوا الله فينسيهم أنفسهم، ثم جاء الحديث عن هذه الآية، لتبين كيف لم ينتفع اليهود ولا المنافقون ولا ضعاف الإيمان، فالمطلوب الاعتبار والتفكر في هذا القرآن كي يصل الإنسان إلى حقيقة الهداية التي توصل إلى رضوان الله تعالى.

وهناك آيات أخرى تبين عظيم تأثير القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ

(٧٤) انظر تفسير البيضاوي، ٣٢٣/٥.
(٧٥) انظر فتح القدير، ٢٠٤/٥.

بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، (الرعد/٣١)، وتدل هذه الآية أن لو كان هناك شيء بحيث يسير الجبال عن أماكنها، ويصدع الأرض ويقطعها، ويكلم الموتى فيصيروا أحياء، لكان هذا القرآن، ولكن حكمته تعالى اقتضت أن لا يفعل ذلك، بل الأمر ما هو عليه الآن، فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا، ولو نزلت عليهم أصناف الآيات فلن يؤمنوا[٧٦].

المبحث الرابع
التفكر في عاقبة عدم الانتفاع بالآيات

إن عدم الانتفاع بالخير والهدى الذي يعطيه الله للإنسان جريمة لا ينبغي أن تمر من دون أن نعتبر بعاقبة أمرها، ومن دون أن نتفكر في حقيقة أمرها، وقد جاءت فيها آية واحدة بأسلوب ضرب المثل كي يتفكر الناس فيه ويدركوا معانيه ويسيروا على هديه، والآية هذه مرتبطة بآية سابقة لها تماماً، وهما:

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (الأعراف/١٧٥-١٧٦)، فالآيتان من سورة الأعراف، وقد سبق التعريف العام بها، وجاءتا في سياق الحديث عن بني آدم، والعهد الذي أخذه الله عليهم وهم في أصلاب آبائهم، وكيف يفصل الله الآيات لعل الناس يرجعون إلى الحق. ثم تأتي هاتان الآيتان تبينان قصة عجيبة من شأنها أن

(٧٦) انظر فتح القدير، ٨٥/٣. وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥١٦/٢.

نتفكر فيها، وذلك في عاقبة من لم ينتفع بالخير الذي ييسره الله لخلقه ويمن به عليهم.

والمفسرون على خلاف في تعيين هذا الذي آتاه الله آياته، أهو من بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام؟ أم منهم ولكن في عهد محمد ﷺ؟ أم من قريش[77]؟ والمهم أن القصة مرتبطة بشخص أعطاه الله من الآيات والدلائل والبراهين ما يستدل بها على الحق، ولكنه -لسبب أو لآخر- انسلخ منها كما تنسلخ الشاة عن جلدها، فترك الآيات والدلائل، فأتبعه الشيطان عند انسلاخه عن الآيات، فلحقه وأدركه وصار قريناً له، فانتهى حاله بأن أصبح من المتمكنين في الغواية والإفساد، ولو شاء الله سبحانه لرفع مكانه بسبب هذه الدلائل، ولكنه بانسلاخه عنها أخلد إلى الأرض والتصق بها ومال إلى الدنيا ورغب فيها عن الآخرة، واتبع هواه. وهنا يضرب الله مثلاً له، فهو في انحطاط رتبته مشابه لأخس الحيوانات، فمثله في أنه لا يرعوي عن المعاصي في جميع أحواله، سواء وعظه واعظ وذكّره المذكر وزجره الزاجر أو لم يحدث هذا كله، كمثل الكلب الذي يلهث في كل أحواله، سواء زجر أم ترك، طرد أم لم يطرد، شد عليه أو لم يشد عليه، فهذا مثل في الخسة والدناءة[78].

ومعلوم أن الذي يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في كل حال، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، فإن وعظ ضل، وإن ترك ضل،

(٧٧) انظر تفسير الطبري، ٩/١٢١؛ الدر المنثور للسيوطي، ٣/٦٠٩-٦١٠؛ فتح القدير، ٢/٢٧٨-٢٧٩.
(٧٨) انظر تفسير البيضاوي، ٣/٧٥؛ الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم، ص/٢١٤-٢٢٤، وقد استرسل في تعليقه على هذا المثل.

ومثلها قوله تعالى في السورة نفسها في آخرها: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾، (الأعراف/١٩٣)[٧٩].

ثم يبين الله تعالى أن ذلك التمثيل بتلك الحالة الخسيسة هو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله بعد أن عرفوها وعلموا بها ثم حرفوها وكذبوا بها، فليعتبر الناس بأن يقص الرسول هذا القصص لعلهم يتفكرون.

نلحظ أن التفكر مقصود من القصة والمثل المذكورين، فليس المطلوب العلم الذي لا يؤدي إلى منفعة، ولا التذكر أو مجرد السماع، بل المطلوب التفكر العميق في هذه القصة، كيف يعرض الناس عن الهدى بعدئذٍ جاءهم، وما أصعب النكوص بعد الإقدام، والوحشة بعد الهدى، فيعتبر ويتعظ، ولا شك أن العبرة مقصودة هنا من التفكر[٨٠].

ولقد أقام الله الحجة على عباده برسله الذين أرسلهم لهم، وأجرى على أيديهم المعجزات الداعية إلى الإيمان، وأنزل الكتب الهادية، فما على الإنسان إلا حسن الاتباع. وعلى العاقل أن يتفكر، فإما اتباع للهدى أو اتباع للهوى، وشتان ما بين المترلتين.

(٧٩) انظر تفسير الطبري، ١٢٩/٩-١٣٠؛ تفسير ابن كثير، ٢٦٨/٢.
(٨٠) انظر التحرير والتنوير، ١٧٩/٩.

المبحث الخامس
التفكر في الكشف عن حكمة التشريع

إن الآيات التشريعية التي تبين فضل الله على الناس في تشريع الأحكام لهـم كثيرة تكفل القسم المدني من القرآن بها، وجاءت وفق مبادئ الإسلام العظـيم في التيسير ورفع الحرج وغيرها مما ميز طبيعة التشريع الإسلامي عن غيره، وهنا فنحن أمام مجموعة من الآيات المتحدثة عن حكمة تحريم الخمر والميسر، وعن مـشروعية النفقة والصدقة، وعن أهمية سنة الزواج، وهي أمور قليلة إن قورنت بمجموع مـا تحدث عنه القرآن في مسائل التشريع، لكن طلب التفكير فيها ربما لأمور خفية قد لا تدرك بمجرد العقل أو السمع، فلا بد من إعمال الفكر فيها، أما الآيات فهي:

١. قولـه تعالى: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، (البقرة/٢١٩)، وهنا فنحن أمام نمط آخر مما يدعونا الله فيه إلى إعمال فكرنا، فهو فيما شرعه الله من أمور قد لا يدرك الإنسان حكمتها لأول وهلة، فلا بد من التفكر كي ندرك رحمة الله بعباده حين شرع لهم مـا فيـه صلاح أمرهم دنيا وآخرة.

وجاءت الآية في سياق الحديث عن مجموعة من التـشريعات، وهـذا أمـر معروف في سورة البقرة التي امتازت بكثرة التشريعات، وهي من أوائل الـسور في العهد المدني، واستمر نزولها فترة طويلة، والمهم أن الله تعالى ابتدأ بها الحديث عـن

مجموعة من الأمور التي قد لا يدرك الإنسان حكمة تشريعها، ومنها الخمر والميسر، وعدم نكاح المشركات وإنكاح المشركين، والمحيض والطلاق وغير ذلك.

ويعنينا هنا الآية التي جاء فيها التفكر، فالخمر مأخوذة من (خمر) بمعنى الستر، فسمي خمراً لأنه يخمر العقل أي يستره ويغطيه، والميسر من اليسر الذي هو وجوب الشيء لصاحبه، والياسر هو اللاعب بالقداح، وكل شيء فيه قمار، من نرد أو شطرنج أو غيرهما فهو ميسر. فيبين الله لرسوله ﷺ أن يجيب السائلين عنهما بأن فيهما إثم كبير وضرر عظيم كثير، فضرر الخمر الذهاب بالعقل، ويصدر عن فاقد العقل كل ما قد يخطر بالبال، وضرر الميسر فقدان المال وإفقار الحال، وما ينتج عنها من العداوة والبغض. وفيهما منافع للناس، وهي ربح التجارة في الخمر، وحصول المال بلا كد من الميسر، وقيل غير ذلك(٨١).

وبعد ذلك يبين الله سؤالاً آخر، وهو ماذا ينفقون؟، فيجيبهم الله تعالى بأن ما ينفق هو العفو، وهو ما زاد وفضل عن حوائجكم ونفقة عيالكم، أو ما سهل وتيسر، وجمهور العلماء على أن المقصود هنا صدقة التطوع، والخلاف هل هي محكمة أم منسوخة بآية التوبة التي حددت مصارف الزكاة، فمن قال إنها محكمة فقد ذهب إلى أن في المال حقاً سوى الزكاة(٨٢)، وهي مسألة خلافية ليس هذا مجال التفصيل فيها.

والذي يعنينا أكثر هو أن تأتي الفاصلة هكذا بالحث على التفكر، ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾، وقد ذهب بعض

(٨١) انظر فتح القدير، ٢٨٩/١-٢٩٠. وانظر تفسير ابن كثير، ٢٥٧/١.
(٨٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٦١/٣. وانظر زاد المسير لابن الجوزي، ٢٤٢/١-٢٤٣؛ البحر المحيط لأبي حيان، ١٥٨/٢.

المفسرين إلى أن الدعوة إلى التفكر مرتبطة بالحديث عن النفقة، والأولى أنها لكل ما جاء في الآية[٨٣]، فهي أمور مما يجب على العاقل أن يتفكر فيها، فالخمر مفسدة للعقل، وسبب للعداوة والبغضاء والصد عن سبيل الله وعن الصلاة -كما بينت آية المائدة- والميسر سبب للفقر أو التكسب المريح الذي يؤدي إلى أنواع من البغضاء والحقد ومن ثم حب الانتقام والعداوة، ويا له من مجتمع متفكك مبني على الفوضى والعداوة، ذاك الذي يعيش أبناؤه بهذه الحالة من التعاسة والعداوة والبعد عن الخير والألفة والأخوة.

فالتفكر في هذه الأمور التشريعية ضروري كي يفهم الناس أن الله لم يحرم شيئاً إلا لضرره، ولم يحل شيئاً إلا لمنفعته، فهو سبحانه الأعلم بما يصلح لهذا الإنسان، وصدق الله سبحانه إذ يقول: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، (الأعراف/١٥٧)، ويقول:﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، (البقرة/١٨٥)، ويقول: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾، (المائدة/٦)، ويقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، (الحج/٧٨).

والعجيب في الآية أن الله تعالى قال: ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾، فما علاقة هذا بما في حيز الآية؟ والجواب أن المسلم ينظر في مثل هذه الأمور في مصالح الدنيا والآخرة، فمصالح الدنيا بالعيش الصحيح السليم والأخوة والتعاون والخير، ومصالح الآخرة بدخول الجنة والنجاة من النار، فالتفكر مطلوب في هذه الأمور التشريعية لما أنه ينبني عليها السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة[٨٤].

---

(٨٣) انظر تفسير الرازي، ٣/٣٢٤؛ تفسير المنار لرشيد رضا، ٢/٣٣٩؛ التحرير والتنوير لابن عاشور، ٢/٢٥٣.

(٨٤) انظر تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم)، ١/٢٢٠.

ومن جميل ما ورد في هذا قول سيد قطب، إذ يقول: "إن التفكر في الدنيا وحدها لا يعطي العقل البشري ولا القلب الإنساني صورة كاملة عن حقيقة الوجود الإنساني، وحقيقة الحياة وتكاليفها وارتباطاتها، ولا ينشئ تصوراً صحيحاً للأوضاع والقيم والموازين، فالدنيا شطر الحياة الأدنى والأقصر، وبناء الشعور والسلوك على حساب الشطر القصير لا ينتهي أبداً إلى تصور صحيح ولا إلى سلوك صحيح"(٨٥).

٢. قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، (البقرة/٢٦٦)، وهنا فالحديث عن النفقة أيضاً، وفي السورة نفسها، لكن السياق هنا واضح الاتصال، فهي مجموعة آيات تتحدث عن الإنفاق في سبيل الله، وآداب النفقة، وخطورة فعل ما يبطل الصدقة، والدعوة إلى المحافظة عليها، ثم تأتي هذه الآية، مثلاً لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم أطاع الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق عمله، فهو مثل آخر لنفقة الرياء(٨٦).

والمعنى: أيحب أحدكم أن يكون له بستان مثمر فيه من أصناف الثمار ما فيها، ويسقيه ماء النهر من دون كد أو جهد، وأصابت الشيخوخةُ صاحبَ البستان فضعف عن الكسب، وله ذرية أطفال صغار لا يقوون على الكسب، فهو في أشد الحاجة إلى هذا البستان في هذه الحال، ثم جاءت ريح عاصفة حارقة ذهبت

(٨٥) في ظلال القرآن، ٢٣١/١ (ط. الشروق).
(٨٦) انظر تفسير القرطبي، ٣١٨/٣.

بالبستان، فكيف يكون حال صاحبه؟ فكذلك بهذا الوضوح يبين الله آياته للناس لعلهم يتفكرون.

وقد روى البخاري في صحيحه قال: "...قَالَ عُمَرُ ﷺ يَوْمًا لأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ قَالُوا اللَّهُ أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لا نَعْلَمُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلا تَحْقِرْ نَفْسَكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لعمل، قال عمر: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ"(٨٧).

وإذا رجعنا وتأملنا السياق، فقد كان الحديث عن المحافظة على الصدقة وعن إبطالها، فجاء هذا المثل الرائع، يبين كيف يكون الإنسان في طاعة لله وسعادة، ثم لا يلبث أن يغير من منهجه إلى الباطل، فيخسر الدنيا والآخرة معاً. وعن عمر قال: "هذا مثل ضرب للإنسان يعمل صالحاً حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إلى العمل الصالح عمل عمل السوء"(٨٨).

وهذه من الأمور التي يجدر بالإنسان أن يفكر فيها، في مصير من لم يؤد شكر نعم الله فينفق المال في سبيل الله تعالى، أو من عمد إلى إبطال صدقته بالمن والأذى

---

(٨٧) صحيح البخاري، حديث رقم: ٤٥٣٨.

(٨٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٦٢/٩. وانظر تفسير أبي السعود، ٢٦٠/١-٢٦١. وقال ابن الجوزي: "هذه الآية مثل ضربه الله تعالى في الحسرة بسلب النعمة عند شدة الحاجة، وفيمن قصد به ثلاثة أقوال أحدها أنه مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره، قاله ابن عباس، والثاني أنه مثل للمفرط في طاعة الله تعالى حتى يموت، قاله مجاهد، والثالث أنه مثل للمرائي في النفقة ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه قاله السدي"، زاد المسير، ٣٢١/١. وانظر قريباً من هذا عند ابن القيم في التفسير القيم، ص/١٦٤-١٦٦؛ تفسير المنار، ٧٠/٣؛ التحرير والتنوير، ٥٣/٣-٥٤.

والرياء، أو من ركن إلى دنياه و لم يفطن إلى تقلبات الزمان و لم يعلم بسنن الله في الابتلاء، أو فيمن منع الفقراء من ماله، فعرض الله ماله للضياع، وغير ذلك مما بينه الله تعالى في كتابه في مواضع متفرقة[٨٩]، وناسب أن يذكر الله بعدها مجموعة من الآيات التي تحث على النفقة في سبيل الله.

ولهذا يقول الآلوسي في الفاصلة: " أي كي تتفكروا فيها وتعتبروا بما تضمنته من العبر وتعملوا بموجبها، أو لعلكم تُعملون أفكاركم فيما يفنى ويضمحل من الدنيا وفيما هو باق لكم في الأخرى فتزهدون في الدنيا وتنفقون مما أتاكم الله تعالى منها وترغبون في الآخرة ولا تفعلون ما يحزنكم فيه"[٩٠]، وقال البقاعي: "أي ليكون حالكم حال من يرجى أن يحمل نفسه على الفكر، ومن يكون كذلك ينتفع بفكره، وقال الحرالي: فتبنون الأمور على تثبيت، لا خير في عبادة إلا بتفكر، كما أن الباني لا بد أن يفكر في بنائه، كما قال الحكيم: أول الفكرة آخر العمل، وأول العمل آخر الفكرة، كذلك من حق أعمال الدين أن لا تقع إلا بفكرة في إصلاح أوائلها السابقة، وأواخرها اللاحقة، فكانوا في ذلك صنفين بما يشعر به (لعلكم) مطابقين للمثل: متفكر مضاعف حرثه وجنته، وعامل بغير فكرة تستهويه أهواء نفسه فتلحقه الآفة في عمله وفي حرثه وجنته من سابقه أو لاحقه"[٩١].

وأختم بما قاله سيد قطب حول السياق كله، فيقول: "إن التناسق الدقيق الجميل الملحوظ في تركيب كل مشهد على حدة، وفي طريقة عرضه وتنسيقه، هذا

---

(٨٩) مثال هلاك الزرع نتيجة لمنع الفقراء ما جاء في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، ومثال من ظن بأنه لا علاقة بالله فيما عنده من كسب، بل هو كسب نفسه ما جاء في قصة قارون في سورة القصص، وفي قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف.
(٩٠) تفسير الآلوسي، ٣٨/٣.
(٩١) نظم الدرر، ٨٨/٤-٨٩.

التناسق لا يقف عند المشاهد فرادى، بل إنه ليمد رواقه فيشمل المشاهد متجمعة من بدئها في هذا الدرس إلى منتهاها.. إنها جميعاً تعرض في محيط متجانس.. محيط زراعي: حبة أنبتت سبع سنابل، صفوان عليه تراب فأصابه وابل، جنة بربوة فآتت أكلها ضعفين، جنة من نخيل وأعناب.. حتى الوابل والطل والإعصار التي تكمل محيط الزراعة لم يخل منها محيط العرض الفني المثير.."[٩٢].

٣. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (الروم/٢١)، والأمر هنا واضح كذلك في بيان هداية التشريع، فمن آيات الله الكثيرة العظيمة أن سن في خلقه سنة الزواج، وما فيها من فوائد عظيمة وحكم جليلة.

وجاءت هذه الآية في سياق تعداد مجموعة من النعم التي من الله بها على عباده، مما يستدعي تعظيمه وحمده وشكره، فذكر الخلق من تراب، ثم جاءت هذه الآية، وبعدها الحديث عن خلق السماوات والأرض واختلاف الألسن والألوان، وبعدها عن المنام بالليل والنهار وابتغاء فضل الله، ثم الحديث عن البرق وإنزال الماء من السماء، وأن تقوم السماء والأرض بأمره، وكيف يبدأ الخلق ثم يعيده...

فيبين الله سبحانه أن من آياته العظيمة ودلائله البينة أن خلق لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها، ومعنى (من أنفسكم) أي من جنسكم في البشرية والإنسانية، وقيل إن المقصود حواء، خلقها الله من ضلع آدم، ومعنى السكن هو الألفة والميل إليها، فمن العادة أن اختلاف الجنسين يؤدي إلى التنافر، ولكنها إرادة الله وفضله، ولتأكيد هذا السكن بين تعالى أنه جعل بين الزوجين مودة ورحمة، وذلك بسبب

(٩٢) في ظلال القرآن، ٣١٠/١.

عصمة النكاح، حيث يعطف به الزوجان على بعضهما، و لم يكن بينهما قبل الزواج معرفة، ولن نخوض في تحديد المودة والرحمة، بل الأولى إطلاقهما ليشملا كل ما من شأنه جلب المودة والرحمة بينهما[٩٣].

ثم يأتي التعقيب في الفاصلة بأن في ذلك آيات عظيمة بديعة لقوم يتفكرون، أجل، يتفكرون في مسألة الزواج، ويا له من أمر عظيم لو دققنا النظر في طبيعته وآثاره لعرفنا فضل الله علينا في شأنه، وعرفنا حكمته العظيمة من وراء سن هذه الأمور.

ففي سنة الزواج أمور عظيمة جدير بالإنسان أن يفكر فيها، فهو التقاء بين أجنبيين كانا محرمين على نفسيهما، وبعقد النكاح يصبحان حلالاً لبعضهما، جسداً واحداً وهمّاً واحداً، يتعاونان على الحياة، وتنشأ المحبة والمودة بينهما، وينتج عن علاقتهما الولد، وتزداد المحبة عندما تعظم المسؤولية، ويصبحان كالنفس الواحدة والجسد الواحد، وهكذا كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾، (البقرة/١٨٧).

وإن التفكر في مسألة الزواج وما ينتج عنه مطلوب كي نشكر الله تعالى، وكي ندرك قدر فضله علينا، فنبني مجتمع العفة والتعاون والتعارف، وإن غير التفكر لن يجدي نفعاً في ذلك، فالمسألة ليست عقلية فالعقل يدركها ابتداء، وليست للذكرى فهي ماثلة، بل للتفكر في آثار نعم الله علينا، وما أكثرها. وما أجمل عبارة أبي السعود في الفاصلة إذ يقول: "لقوم يتفكرون في تضاعيف تلك الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله مع التنبيه على أنّ ما

(٩٣) انظر تفسير البيضاوي، ٣٣١/٤-٣٣٢؛ تفسير أبي السعود، ٥٦/٧؛ فتح القدير، ٢١٢/٤-٢١٣.

ذكر ليس بآية فذة كما ينبئ عنه قوله تعالى: (ومن آياته) بل هي مشتملة على آيات شتى"[٩٤].

المبحث السادس
التفكر في حقيقة الحياة الدنيا وحتمية الموت

وجاءت فيها آيتان تتحدثان عن حقيقة الحياة الدنيا وحتمية الموت، وهي أمور مرتبطة بالإيمان باليوم الآخر، فلزم التفكير فيها لوجود ما من شأنه أن يصد الإنسان عن الحقيقة، حقيقة الموت وزوال الدنيا وحتمية الآخرة وما فيها من ثواب أو عقاب.

وإن كان أمر الآخرة وما فيها من أحداث كلها مسائل غيبية مطلوب منا الإيمان بها، إلا أن الدلالات من حولنا كثيرة فيما يوصل إلى حتمية وجود يوم يرجع الناس فيه لربهم، يحاسبهم ويوفيهم أجورهم، فليس من أطاع كمن عصى، ولا من أطاع والتزم كمن ظلم وكفر.

ومن الدلالات التي توحي بحتمية الموت وسهولة البعث بعد الموت ما بثه الله من آيات عظيمة، حيث الليل والنهار، والنباتات، وتغير المخلوقات على أحوال كثيرة متقلبة، فمطلوب منا أن نعمل عين الفكر وعين البصر في ملاحظة هذه الأمور التي تقود إلى حتمية حقيقية لا مفر منها، وهي انتهاء الدنيا.

وقد جاء ذكر التفكر مقترناً بطبيعة الحياة الدنيا ومسألة الموت في آيتين هما:

(٩٤) تفسير أبي السعود، ٥٦/٧.

١. قولـــه تعالى: "إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَـــتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَـــمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"، (يونس/٢٤)، فالآية جاءت في سياق الحديث عن نعم الله تعالى على الإنسان، وموقف الإنسان المتسرع حين ينكر فضل الله ونعمه عليه، وقبل هذه الآية مباشرة كان الحديث عن تـــسخير البحـــر، وكيف إذا ألمّ بالناس خطر الموج وهم في البحر، كيف يـــدعون الله تعـــالى بـــأن ينجيهم، وبعد ذلك يكون التنكر لله وما يتبع ذلك من بغي في الأرض، فيقول الله تعالى بأن هذا البغي مرجعه عليكم، والحياة الدنيا لـــن تـــدوم، ثم المرجـــع إلى الله فينبئكم بما كنتم تعملون، ثم تأتي هذه الآية.

وهذا المثل الذي ضربه الله لبيان حقيقة الحياة الدنيا من شأنه أن نتفكر فيـــه، فهو ليس لهؤلاء المذكورين فحسب، بل لكل مغرور في هذه الدنيا مطمئن لها، وقد جاءت آيات شبيهة بهذه في سورتي الكهف والحديد[٩٥]، ولكن التفصيل هنـــا في بيان سرعة تقلب الأحوال، وأن الدنيا ببهجتها وجمالها وما يدعو الإنسان إلى الخلود فيها هي سريعة الزوال، فلا ينبغي أن يطمئن أو يركن لها أحد، فمثلها في ســـرعة زوالها مثل ما على الأرض من أنواع النبات، فما أسرع زوال جماله ورونقه وبهجته. وقد يكون من أمر هذا النبات الجميل بأصنافه المختلفة أن يظن الإنسان أنه قـــادر على الانتفاع به، ولكن يسبق أمر الله بأن تهلك بطريقة أو بأخرى، فيجعلها كما لو

(٩٥) الكهف/٤٥، والحديد/٢٠. وقد ذكر الله لفظ الحياة الدنيا في حوالي (٦٠) موضعاً.

أنها زرع محصود لا انتفاع به، كأن لم يكن، وهكذا حال الدنيا متقلبة بأهلها، فلا يجوز الركون أو الاطمئنان إليها[٩٦].

ونلحظ هنا كيف جاءت الفاصلة بالحديث عن التفكر، فهذه الأمور التي ذكرها الله تعالى تبين أبعد من الظاهر، وتدعو إلى الاعتبار الذي ينشأ عنه الإيمان الحقيقي، فلا بد من التفكير الصحيح العميق، فليسخر الإنسان حواسه كي يزداد اقتناعاً ويقيناً بأنه غير مخلد في الدنيا، وأن الدنيا هي متاع الغرور.

٢. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (الزمر/٤٢)، والآية من سورة الزمر، وهي سورة متخصصة في بيان أمور العقيدة، ومنها عقيدة اليوم الآخر الذي يبدأ بالموت. فتحدثت السورة عن مظاهر قدرة الله في الخلق والتقدير، ومن ذلك خلق الإنسان، وتحدثت كذلك عن بعض طباع الإنسان السلبية، فيما يخص تنكره لنعم الله تعالى، وتتحدث كذلك عن دور النبي ومهمته في تبليغ رسالة ربه، وتحدثت عن أن الله كتب الموت على خلقه كلهم، ومنهم محمد ﷺ، وهكذا تتنوع الآيات وهي تبين قدرة الله تعالى، إلى أن تأتي هذه الآية.

والحقيقة أن الآية تبين بعض ما على الإنسان إدراكه وتيقنه، فمن قدرته سبحانه، أنه يقبض الأنفس عند حضور أجلها ويخرجها من الأبدان، ويتوفى كذلك الأنفس التي لم يحضر أجلها وذلك في منامها، فيقبضها عن التصرف مع بقاء الروح

(٩٦) انظر ابن قيم الجوزية، الأمثال في القرآن الكريم، ص/١٨٥. وانظر في تفسيرها التحرير والتنوير، ١٤١/١١.

في الجسد، وبعد ذلك يبين الله سبحانه أنه يمسك التي قضى عليها الموت لانتهاء أجلها، ويرسل الأخرى التي لم ينته أجلها إلى أن يحين أجلها المسمى عند الله تعالى، وفي هذا آيات لقوم يتفكرون(٩٧).

ويبين ابن كثير على أن في الآية دلالة على أن الأنفس تجتمع في الملأ الأعلى كما قال ﷺ في دعاء النوم: "باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين"(٩٨). وعَنِ البراء: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺكَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ قَالَ اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَحْيَا وَبِاسْمِكَ أَمُوتُ وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"(٩٩)، قال النووي: "المراد بـ (أماتنا) النوم، وأما النشور فهو الإحياء للبعث يوم القيامة، فنبه ﷺ بإعادة اليقظة بعد النوم الذي هو كالموت على إثبات البعث بعد الموت"(١٠٠).

ولنا أن ندرك مدى ما في هذا النص من آيات وعبر لقوم يتفكرون، فمطلوب منا التفكر في حقيقة النفس التي بين جنبينا، وحقيقة ما يكون عليه الإنسان حال النوم، وكيف أن الله تعالى هو المتصرف في خلقه، وسبحانه قهر عباده بالموت، فالإنسان إلى زوال، ولن يخلد على الأرض أحد، فإذا كان هذا الأمر محتماً على

(٩٧) وقد سمى بعض العلماء الوفاة التي تقبض فيها الروح نتيجة لمسك النفس: الوفاة الكبرى، والأخرى التي يرسلها الله تعالى إلى أجل مسمي: الوفاة الصغرى، وهذا شبيه بقوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ"، (الأنعام/٦٠-٦١)، ففي سورة الأنعام ذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى، وفي الزمر ذكر الكبرى ثم الصغرى، انظر ابن كثير في تفسيره، ٥٦/٤.

(٩٨) رواه البخاري في صحيحه برقم: ٦٣٢٠، ومسلم في صحيحه برقم: ٢٧١٤.

(٩٩) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، رقم: ٥٨٣٧ وغيره من المواضع، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، رقم: ٢٧١١، وابن ماجة في سننه، كتاب الدعاء، رقم: ٣٨٧٠، وأحمد في مسنده، رقم ٢٠٤٠٤.

(١٠٠) صحيح مسلم بشرح النووي، ٤٤/٩.

الإنسان فالعاقل المتدبر المتفكر في حقيقة أمره ينظر إلى مستقبله، ينظر إلى ما بعد الموت، يهيئ النفس للدار الأخرى التي هو ساكنها ومخلد فيها، وهي الحياة الحقيقية لا الحياة الدنيا الفانية.

ومما يجب أن نتفكر فيه، أننا في كل ليلة وكل نومة أننا في موت، ومن يدري فلعل نومه يدوم فيقبض الله روحه، فمسكين هذا الإنسان يخلد إلى النوم ويستسلم له، وبمثل هذا الاستسلام سيستسلم للموت حين يحين أجله، فلم لا نفكر في هذه الصور الكائنة لا محالة، ولا بد من أجل الراحة بعدها من الاستعداد والعمل بما يرضي ربنا المحيي المميت سبحانه.

الخاتمة والنتائج

أما وقد انتهينا من تحقيق الغاية من الدراسة، فهذا أوان إظهار أهم النتائج التي نستخلصها منها:

١. للعلم والفكر والعقل مرتبة عالية عظيمة في كتاب الله تعالى، وهو كتاب هداية عامة فيه الحوار والعلم والتفكر، لأنه يخاطب العقول والقلوب معاً، فليس غريباً أن يكون الحجة الدامغة والمعجزة الباقية على مر العصور.

٢. من مظاهر إعجاز القرآن الكريم الكثيرة اختيار الكلمة المناسبة للمقام المناسب، فكل كلمة في القرآن جاءت لتعطي معنىً محدداً مقصوداً، ولا يسد مكانها أية كلمة أخرى، فهناك فروق واضحة بين المصطلحات التي قد يظن أنها مترادفة مع التفكر، سيما الألفاظ التي تدور حول العقل والتذكر والتدبر والفقه، فلكل واحد منها مجالاته، وإن اشترك أكثر من واحد في مسألة معينة –من خلال نصوص متنوعة– فلا بد أن يكون هناك ما يفرق بينهما، وأن يتطلب السياق مصطلحاً ما أكثر ارتباطاً من الآخر.

٣. إن ورد التفكر مرتبطاً بمسألة ما، فإن المطلوب هو إعمال الفكر لا مجرد النظر أو العلم أو تخيلها في العقل. وإن ورد العلم فالمطلوب مجرد العلم بها، وإن ورد العقل فللإشارة إلى أن المذكور من شأنه أن تدركه العقول السليمة، وإن ورد التدبر فهو التفكير في دبر الأمور وعواقبها، وإن كان

الفقه فهو لطلب الفهم الشامل ولاستنباط الدروس، وإن كان السمع فللإشارة إلى أخبار، وإن ورد البصر فللحديث عن أمور مشاهدة، وإن جاء التذكر فلأمور من شأنها أن تتذكر، وغالباً ما يأتي في العبر.

٤. الآيات القرآنية التي تحدثت عن العلم والعقل والفقه والتفكر والتدبر والسمع والبصر وغيرها من وسائل الإدراك كثيرة، وهذا يدل دلالة واضحة على اهتمام القرآن بالعلم والعلماء، وأن القرآن كتاب هداية عامة متنوعة، في الإيمان والتشريع والسلوك، بأساليب متنوعة من العرض، الأدبي والقصصي والتمثيلي والعلمي والعاطفي.

٥. للتفكر أهمية كبيرة في القرآن، وقد ذُكر ثماني عشرة مرة، وارتبطت بالتفكر بطريقة غير مباشرة آيات أخرى كثيرة، ذكرت السمع أو البصر أو العقل، ولكن المقصود منها هو أبعد من هذه، فهو السمع الذي يقود إلى الفكر والبصر الذي يقود إلى الفكر، وهكذا.

٦. للقرآن مناهج متنوعة في الحديث عن التفكر، فلم يكن التفكر مرتبطاً في موضوعاته وأساليبه ومتعلقاته وأنواعه ودرجاته ومجالاته بنوع واحد ونمط واحد، بل التنوع هو الميزة الرئيسة، فارتباط اللفظ بالسياق والسور المختلفة ذات الموضوعات المختلفة يتطلب هذا التنوع.

٧. تطرقت آيات التفكر إلى موضوعات ستة تطلبت حسن التفكير، وهي في الأدلة المشيرة إلى عظمة الله تعالى، في السماوات والأرض والنبات والمطر والنحل وغيرها، والدلالات الإيمانية في حقيقة النبوة والرسالة

والوحي، والدلالات الإيمانية في حقيقة الحياة الدنيا وزوالها وحقيقة الموت، وبعض الدلالات التشريعية في حكمة تشريع بعض الأحكام، وفي تعظيم شأن القرآن، وفي عاقبة من لم ينتفع بعلمه.

٨. هناك آداب للتفكر ينبغي الاسترشاد بها والسير وفقها، فينبغي أن يكون التفكير فيما فيه فائدة، وأن لا يتجاوز حدود الغيب، ولا بد له من حرية كي يبدع، وهناك ضرورة تنوع أساليب التفكير، وضرورة التفكير السليم المبني على أصول علمية، لا الموجه غوغائياً أو تعصباً.

٩. بينت الدراسة روعة القرآن في تناسق السياق وخدمته لكل الآيات المشمولة فيه، بحيث تتناسب الكلمات القرآنية في الفواصل مع ما في حيز الآيات من كلمات وتوجيهات ودلائل.

المصادر والمراجع

١. الآلوسي، محمود شكري، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/٤).

٢. إسماعيل، فؤاد فريد، مبادئ الفلسفة والأخلاق، (وزارة التربية، الكويت، ١٩٨٣).

٣. الأصفهاني، أبو الشيخ، كتاب العظمة، تحقيق رضاء الله محمد إدريس المباركفوري، (دار العاصمة، الرياض، ط/١، ١٩٨٨).

٤. البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، المطبوع مع فتح الباري، (دار الفكر، بيروت، ط/١، ٢٠٠٠).

٥. البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآي والسور، (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط/٢، ١٩٩٢).

٦. البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر، أنوار التتريل وأسرار التأويل، المعروف بـ تفسير البيضاوي، (مؤسسة شعبان، بيروت).

٧. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، (المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦٨).

٨. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، صيد الخاطر، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط/٤، ٢٠٠٢).

٩. ابن حنبل، الإمام أحمد، المسند، (المكتب الإسلامي، بيروت).

١٠. أبو حيان، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/٢، ١٩٩٠)

١١. خليل، عماد الدين، مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٢، ١٩٨٥).

١٢. الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، (مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٩٧٨).

١٣. الرازي، الفخر، محمد بن عمر، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/٣، ١٩٨٠)، و (مكتبة الإيمان، المنصورة، ط/١).

١٤. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، (دار المعرفة، بيروت).

١٥. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (دار إحياء التراث العربي، بيروت).

١٦. السيوطي، جلال الدين، الجامع الصغير، دار الكتب العلمية، بيروت).

١٧. السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، (دار المعرفة، بيروت).

١٨. السيوطي، جلال الدين، لباب النقول في أسباب النزول، (دار إحياء العلوم، بيروت، ط/٣، ١٩٨٠).

١٩. شحاته، عبد الله، تفسير الآيات الكونية، (دار الاعتصام، القاهرة، ط/١، ١٩٨٠).

٢٠. الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق عبد الرحمن عميرة، (دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط/١، ١٩٩٤).

٢١. الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود وأحمد محمد شاكر، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠).

٢٢. عابدين، محمد أبو اليسر، الإيجاز في آيات الإعجاز، تحقيق محمد كريّم راجح، (دار البشائر، دمشق، ط/١، ١٩٩٤).

٢٣. ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤).

٢٤. عباس، فضل حسن، وسناء فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، (عمّان، ١٩٩١).

٢٥. عبده، محمد، ومحمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، المشهور بتفسير المنار، (دار المعرفة، بيروت، ط/٢).

٢٦. عساف، أحمد محمد، بغية الطالبين من إحياء علوم الدين، (دار إحياء العلوم، بيروت، ط/٣، ١٩٨٣).

٢٧. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، (دار الفكر، بيروت، ط/١، ٢٠٠٠).

٢٨. ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري والسيد عبد العال السيد إبراهيم، (ط/١، قطر).

٢٩. الغزالي، محمد، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، (دار الدعوة، الإسكندرية، ط/٤، ١٩٩٩).

٣٠. ابن فارس، أحمد القزويني، معجم مقاييس اللغة، (مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨١).

٣١. فرحات، أحمد حسن، الفكر الإسلامي: مفهومه ومعالمه، (دار عمّار، عمّان، ط/١، ٢٠٠٣).

٣٢. القاضي، عمر، الرأي والعقيدة في الإسلام، (منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ١٩٩٩).

٣٣. القرضاوي، يوسف، العقل والعلم في القرآن الكريم، (مكتبة وهبة، القاهرة، ط/١، ١٩٩٦).

٣٤. القرطبي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الرزاق المهري، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط/١، ١٩٩٧).

35. قطب، سيد، في ظلال القرآن، (دار الشروق، بيروت، ط/٣، ١٩٧٧).
36. قطب، محمد، دراسات قرآنية، (دار الشروق، بيروت، ط/٢).
37. ابن قيم الجوزية، الأمثال في القرآن الكريم، تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب، (دار المعرفة، بيروت، ١٩٨١).
38. ابن قيم الجوزية، التفسير القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، (دار الكتب العلمية، بيروت).
39. ابن قيم الجوزية، الفوائد، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، (المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠١).
40. ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر الجليل، (دار طيبة، الرياض، ط/١، ٢٠٠٣).
41. ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، (دار الفكر، بيروت).
42. اللالكائي، أبو القاسم، أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق أحمد سعد حمدان، (دار طيبة، الرياض).
43. اللقاني، أحمد حسين، المواد الاجتماعية وتنمية التفكير، (عالم الكتب، القاهرة).

٤٤. ابن ماجة، محمد بن يزيد، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد البـــاقي، (دار الفكر، بيروت).

٤٥. محمد مصطفى زيدان، علم النفس التربـــوي، (دار الـــشروق، جـــدة، ١٩٨٠).

٤٦. مصطفى، معتصم بابكر، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، (سلسلة كتاب الأمة، العدد ٩٥، قطر، ط/١، ٢٠٠٣).

٤٧. المزيدي، زهير منصور، مقدمة في منهج الإبداع: رؤية إســـلامية، (دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط/١، ١٩٩٣).

٤٨. ابن منظور، لسان العرب، (دار صادر، بيروت).

٤٩. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الإسلامية وأســـسها، (دار القلم، دمشق،ط/٥، ١٩٩٩).

٥٠. النحوي، عدنان، النهج الإيماني للتفكير، (دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، ط/١، ٢٠٠١).

٥١. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد، تفسير النسفي المسمى: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (دار الفكر، بيروت).

٥٢. النووي، يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: عـــصام الصبابطي وحازم محمد وعماد عامر، (دار أبي حيان، ط/١، ١٩٩٥).

٥٣. النيسابوري، مسلم بن الحجّاج، الجامع الصحيح، المطبوع مع شـــرح النووي، (دار أبي حيان، ط/١، ١٩٩٥).

٥٤. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (دار الفكر، بيروت، ١٩٨١)

٥٥. الواحدي، علي بن أحمد النيسابوري، أسباب الـــترول، (دار المعرفـــة، بيروت).